



منتدي القديس العظيم مار مينا العجايبى

رابطة محبي القديس اغسطينوس

كتاب " الاعترافات "

<http://mar-mina.com/vb/index.php>

mano

## الكتاب الأول

=====

اعترافات القديس أوغسطينوس عن:

- 1 - عظمة الله وعدم إمكان إدراكه
- 2 - مراحمه في الطفولة والصبا
- 3 - تمرد الإنسان عليه
- 4 - خطايه من البطالة
- 5 - تعريظه في الدارسة
- 6 - عطايا الله له وحياته حتى سن الخامسة عشرة

### عظمة الله وعدم إمكان إدراكه

-1-

عظيم أنت يا رب وأعظم من أن تُسبح

عظيمة هي قوتك أما حكمتك فإنها تفوق كل وصف

\*\*\*

ربي ، إنك جدير بأن يسبحك الإنسان ، الإنسان الذي ليس إلا ذرة من خليقتك الإنسان الذي يقاسي موته ، ذلك الموت الشاهد علي خطيته وإثمه ، ومع ذلك فهل هو يسبحك ؟

\*\*\*

ليتك توقظنا لنبتهج في تسيحك ، لانك صنعنا لك وسيظل قلبنا مضطرباً إلي أن يهجع فيك

!

\*\*\*

هَب لي يا رب أن أعلم وأفهم أيهما يكون أولاً أَدْعُوك أم أَسْبِحُكَ ؟ وأيضاً أَدْعُوك أولاً أم أَعْرَفُكَ ؟ إذ من ذا الذي يقدر أن يدعوك وهو لا يعرفك ، لأن الذي لا يعرفك قد يدعو سواك

قاصداً بهذا أن يدعوك أنت!

\*\*\*

ونحن الذين ندعوك هل نعرفك ؟!

ولكن كيف يدعون الذي لا يؤمنون به ؟ وكيف يؤمنون بلا كارز ؟ إن الذين يطلبون الرب يجدونه والذين يجدونه يسبحونه 0

\*\*\*

سأفتش عنك يا رب بالدعاء لك ، وسأصلي إليك مؤمناً بك ، لأنك أنت الذي كُرز باسمه لنا !  
♦♦♦ سيدعوك إيماني الذي أعطيتني إياه ، الذي أوحيت به إلي بتجسد ابنك وبخدمة الكارز ( المقصود بالكارز القديس أمبروز أسقف ميلانو الذي آمن القديس أوغسطينوس علي يديه )

♦

-2-

كيف أدعو إلهي - إلهي وربي - إنني عندما أدعوه إنما أدعوه لنفسي ؟

أي فراغ يوجد في داخلي حتى يقدر إلهي - الله - الذي خلق السماء والأرض أن يدخل في ؟

أه أيها الرب إلهي هل يوجد هنالك حقاً موضع فيّ يمكن أن يسعك ؟

وهل من ثم السماء والأرض اللتان خلقتهما ثم خلقتني منهما هل يسعانك ؟

وإذا كان لا يمكن أن يوجد بدونك شيء مما أوجدته فهل يوجد هنالك شيء يمكن أن يسعك ؟ وأنا الذي أوجدتني لماذا أطلب أن تدخل فيّ ، أنا الذي لم أكن موجوداً بدونك ؟ أحقاً أنك لست فيّ ؟ لماذا ؟ إنني لن أهبط إلي الجحيم لأنك فيّ ، ومع ذلك إذا هبطت إلي الجحيم

فأنت هناك !

أه يا إلهي لا أقدر أن أموت ، بل لا أقدر أن أكون مطلقاً ، ما لم تكن أنت فيّ ، أو أكون أنا فيك ، لأن لك وبك وفيك كل الأشياء 0

\*\*\*

أين أدعوك يا رب ؟ أين أدعوك مادمت أنا فيك ، ومن أين تقدر أن تدخل فيّ ، لأنني من أين أقدر أن أتجاوز السماء والأرض حيث يدخل إلهي ، الذي قال " إنني أملأ السماء والأرض " ♦

-3-

هل تسعك إذن السماء والأرض ما دامت أنت تملأهما ؟ أو هل أنت تملأهما وتفيض عنهما لأنهما لا يسعانك ؟

وإذا كانت السماء والأرض مملوءتان بك فأين تفيض إذن بالباقي منك ؟

وهل تحتاج إلي شيء يسعك يا من تحوي كل الأشياء وتملاً ما أنت تملأه باحتوائك إياه ؟♦♦♦ إن الأواني التي أنت تملأها لا تدعمك لأنها قد تكسر وأنت لا تفيض منها ! وأنت عندما تفيض علينا فإنك لا تكدرنا ولكنك ترفعنا ! أنت لا تبددنا ولكنك تجمعنا !

ولكنك يا من تملأ كل الأشياء هل تملأها بذاتك كلك ؟ وإذا كانت كل الأشياء لا يمكن أن تسعك كلك فهل هي تحوي جزءاً منك ؟ وأي جزء هذا الذي تحويه ؟ وهل هي جميعاً تحوي نفس الجزء ؟ أم أن لكل شئ منها جزئه الخاص ! وهل هذا الجزء هو الجزء الأكبر بزيادة أم الجزء الأصغر الأدنى ؟ إذن هل يوجد فيك جزء كبير وآخر صغير أم أنك كلك في كل مكان بينما لا يمكن أن يوجد مكان يستطيع أن يحويك !

-4-

ماذا أنت يا إلهي ؟ ماذا أنت إلا الرب الإله ! لأنه من هو السيد إلا الرب ؟ ومن هو الإله سوي إلها ؟

عال جداً ! صالح جداً ! قوي جداً ! مقتدر جداً ! رؤوف جداً ومع ذلك عادل جداً ! مستتر للغاية ومع ذلك ظاهر جداً ! جميل جداً ومع ذلك قاس جداً ! دائم ومع ذلك لا يمكن إدراكه ! ثابت ومع ذلك يغير كل شئ ! أباً حديث وعتيق علي الإطلاق 000 ! يحدد الكل ويعطي المتكبرين أباماً وهم لا يعلمون ! دائماً يعمل ومستريح إلي الغاية ! دائماً يحشد ومع ذلك غير محتاج إلي شئ ! يدعم ويسد العوز ويستتر 000 ! يبدع ويعول وينمي ! يطلب ومع ذلك يملك كل شئ !

\* \* \*

أنت تحب بلا شهوة وغبور بلا قلق ! تدم ومع ذلك لا تأسف ! أنت حائق ومع ذلك أنت هادئ 000 ! تغير كل أعمالك وغرضك ثابت ! تأخذ كل ما تجده ومع ذلك أنت لا تضعه أبداً 000 ! لا تحتاج مطلقاً إلي شئ ومع ذلك تسر بالأرباح ! لست طماعاً ومع ذلك تطالب بالأرباح ! تأخذ كثيراً لكي تصير مديوناً ومن عنده شئ وليس هو ملكك ؟ أنت تدفع ديوناً ليس لهل أصل وتعيد ديوناً دون أن تنقص منها شيئاً ! ماذا أقول عنك الآن يا إلهي يا حياتي وقرحي الطاهر ؟ وماذا يقول أي إنسان عندما يتكلم عنك ! ؟ ويل لمن لا يتحدث بحمدك عندما ينطق الأخرس ويصير كأفصح البلغاء !

-5-

ليتنى أجد راحتني فيك ! بل يا ليتك تدخل قلبي وتخرده لعلني أنسي أسقامي وأعانك يا صلاحني الوحيد ! ماذا أنت لي ؟ بحنانك علمني أن أنطق برأفتك ! ماذا أنا لك حتى إنك تطلب محبتي وتعادلني بك وإن لم أحبك تهددني بويلات حسام ؟

إذن كم هي مصيبة كبري إن لم أحبك ؟ بل ليتك أيها الرب إلهي تخبرني - لأجلاً مراحمك - ماذا أنت لي ؟ ليتك تقول لنفسني أنا خلاصك ! هكذا تكلم لعلني أسمعك !!

ها هو ذا قلبي أمامك يا رب . أفتح أذنيك وقل لنفسني أنا خلاصك وبعد أن تُسمعني هذا الصوت دعني أسرع وأمسك !! لا تستر وجهك عني وإن سترته دعني أموت ولكنني لا أريد الموت ! فدعني أري وجهك !!

-6-

إن مسكن نفسي ضيق ! وسعه لعلم تدخل في ؟ هو حرب ، هيئه لأن ما بداخله لا بد أن يغيظ عينيك ! إنني أعتز وأعرف كل ذلك ولكن من ذاك الذي سيظهرني ؟ وإلي من يجب علي أن أصرخ نحوه إلا إليك ؟ يا رب طهرني من خطاياي الخفية ! أشفق علي خادمك من سلطان العدو ! بهذا أؤمن ولذلك أتكلم !

أنت تعلم يا ربي أنني أتكلم ضد نفسي عن الخطايا التي صنعتها ضدك لأنك يا إلهي قد غفرت إثم قلبي ! لا أدخل في المحاكمة معك لأنك أنت هو الحق ! لا أدخل في المحاكمة معك لأنني أخاف أن أجد نفسي فيفضحني شري أمامك يا من تراقب الأثام ! وإن راقبت الأثام أه يا رب من يقدر أن يحتمل ذلك ؟

-7-

#### دور الرضاة

احتملني لأخاطب رحمتك أنا الرماد والتراب ! احتملني لأنكلم ما دمت أخاطب رحمتك ولا أخاطب إنساناً مزدري به ! إنك قد تهزأ بي ولكنك تعود فترحمني ! ماذا يجب علي أن أقول لك أيها الرب إلهي ؟ إنني لا أعلم من أين أتيت إلي هذه الحياة المائتة ! كما لا أعلم هل ادعوها الحياة المائتة أم الموت الحي ؟ يا ليت تعزيات رحمتك تدركني سريعاً !!

\* \* \*

لست أذكر ، ولكنني سمعت من والديّ اللذين صورتنني من جسديهما في وقت من الأوقات ! لقد سمعت أنك أعطيتني لبن المرأة غذاء أنعم به ، أن أمي ومربياتي لم يكنن أندائهن باللبن لأجلي ولكنك أنت - تبعاً لشريعتك التي قسمت بها ثرواتك في الينابيع الخفية لكل الأشياء - قد وهبت لي طعام الطفولة بواسطتهن كما وهبتي أن لا اشتهي أكثر مما أعطيته لهن ! لقد كانت مربياتي بعاطفة علوية تلقينها من السماء يعطينني عن طيب خاطر ما فاض عليهن مما أعطيته لهن ، وفاندتي منهن كانت حسنة لهن وإن لم تكن في الواقع منهن بل بواسطتهن ! لأن كل الأشياء الحسنة هي منك يا الله ومنك يا إلهي كل عافيتي

عندما تعلمت هذا أنت أعلنت نفسك لي بواسطة عطايك هذه المستترة في والظاهرة0  
-8-

بعد ذلك تعلمت فقط أن أضع وأسكن إلي ما يسرني ! وأن أبكي وأصرخ إلي ما بكدر جسدي ! - لا شيء أكثر من هذا - حتى إذا مضي زمن يسير بدأت ابتسم في النوم أولاً ثم اليقظة ! هكذا أخبروني عن نفسي ولقد صدقتهم لأننا نرى أطفالاً آخرين يفعلون مثل ما فعلت وإن كنت لا أتذكر ذلك عن نفسي وهكذا بدأت تدريجياً أن أدرك أين كنت ! في تلك الأثناء كانت تجيش في نفسي رغبات طالما كنت أتوق أن أعبر عنها لأولئك الذين يقدر أن يرضوا رغباتي ولكنني لم أستطع إلي ذلك سبيلاً لأن الرغبات وإن كانت ظاهرة للجميع إلا أنها كانت داخل نفسي فلم يستطيعوا أن يفهموا كنهها لأنني لم أكن قادراً علي أن أفصح عنها !

لقد كانت هذه الرغبات قوية في نفسي فلما لم أستطع الحصول عليها من الناس بدأت أسخر منهم بتحريك الأطراف والصرخ وعمل تلك الإشارات القليلة المتشابهة التي لم أكن أستطيع أن أعمل غيرها للحصول علي ما أريد .  
وعندما كان من هم أكبر مني سناً يتأخرون عن إجابة رغباتي سواء أكانت رغباتي هذه صارة أو غير مفهومة لهم كنت أعصب علي من اعتادوا خدمتي لأنهم لم يطيعوني كما كنت أعصب أيضاً علي من لم يعتادوا خدمتي وعلي الذين لا فضل لهم علي لأنهم لم يخدموني وكنت أخذ تأري منهم جميعاً بالدموع .  
وعندما كبرت علمت أن الأطفال - وأنا أيضاً لما كنت طفلاً - في حالة عدم وعي ولا يدركون هذه الأمور فعرفت عن ذلك أكثر مما تعلمته من مرضعاتي .

-9-

ها أنا أعيش وإن كانت طفولتي قد ماتت منذ زمن طويل ! أما أنت يا رب فدائم إلي الأبد وفيك لا يموت أحد ! لأنه قيل أن توجد الكائنات وقيل كل أن بدعي) قبلاً) أنت هو ؟ أنت هو الله ورب كل ما أبدعته . . . فيك تدوم ثابتة إلي الأبد الأسباب الأولية لكل الأشياء الغانية ! . . . فيك تدوم الأصول غير متغيرة لكل الأشياء المتغيرة !! . . . فيك تحيا البواعث الأولية لكل الأشياء غير المعقولة والزمنية!!  
\* \* \*

قل لي يا رب ما هو ملتمسك ؟ . . . قل لي بكل أسف عن الذي يحزنك ! . . . قل لي هل سبق طفولتي دور آخر لي مات قبلها ؟ ! . . . وهل كان ذلك الدور هو الدور الذي مكنته في بطن أمي ؟ . . . لقد سمعت قبلاً عن هذا وإن كنت شاهدت بنفسي نساء حبالتي ! . . . ماذا قبل تلك الحياة يا إله بهجتي ؟ . . . ماذا كنت أنا وأي جسد كنت ؟ لأنه لم يخبرني أحد عن هذا ! لا أب ولا أم ولا اختبار آخرين حتى ولا ذاكرتي ! . . . أتسخر لحيرتي هذه وتأمري أن أسبحك ؟ إنني أعترف لك بعجزتي !

-10-

أعترف لك يا رب السماء والأرض وأسبحك لأنك سبب وجودي وأصل طفولتي التي لا أعرف عنها شيئاً ! إنك قد رسمت للإنسان أنه ينبغي عليه أن يعتقد بأن الكثير مما يجري عليه يجري علي الآخرين وأن يعتقد كثيراً في مدي قوة الأثنى الضعيفة !!  
لقد كنت موجوداً وعائشاً عند نهاية طفولتي وكنت قادراً علي أن أعمل إشارات أكتشف بها للآخرين عن احساساتي . فمن أين يمكن أن يكون وجود كهذا الوجود ، إلا منك أنت يا رب ؟ لأنه هل يستطيع أحد أن يخلق نفسه ؟ . . . وهل يمكن أن يتفرع في عالم غير عالمنا هذا أي ويريد يكون منه روح وحياة لنا سوي منك أيها الرب الذي فيك الروح والحياة معاً ؟ . . . أنت نفسك الروح والحياة بأسمى درجاتها !! . . . أنت عال جداً وغير متغير ! . . . فيك لا ينتهي الزمان وإن كان ينتهي فيك اليوم لأن كل الأشياء أيضاً فيك وليس لها طريق تزول فيه إلا بأمرك!!

أنت هو الله وسنوك لا تغني لأن سنينك هي اليوم ! كم عاماً لنا ولأجدادنا ذابت في يومك ومنها أخذ وجود كهذا الوجود قياسه وشكله كما أن أعواماً أخرى سوف تذوب وتأخذ شكل قالب وجودها . ولكنك أنت وحدك ما زلت كما أنت خالق الأمور المستقبلية وما وراء المستقبلية وكل أمور أمس وما قبله . ماذا أنت لي ؟ لا أحد يدرك هذا . دع من لا يدركك يتعجب ويقول ماذا أنت ؟ دعه يفرح ويسر لأن أحداً لم يعرفه بوجودك وهذا خير له من أن يفرح بكونه قد تعلم أنك غير موجود!

-11-

استمع يا الله استمع وأسفاه لمعصيتي ( هكذا أقول لك ) وأنت ترجمني لأنك خلقتني ولكنك لم تخلق الإثم الذي في .  
من ذا الذي يذكرني بخطايا طفولتي ؟ لأنه لا يوجد أمام عينيك إنسان طاهر حتى ولو كان طفلاً رضيعاً لم تتجاوز حياته يوماً واحداً علي الأرض !  
من ذا الذي يذكرني بخطايا طفولتي ؟ فما هي إذن هذه الخطايا؟ ما لا أتذكره عن نفسي وأنا طفل أتصوره في غيري من الأطفال فماذا كانت خطيتي إذن ؟ أكانت خطيتي إنني كنت

أرتمي علي ثدي أمي صارخاً باكياً ؟ إنني لو فعلت ذلك اليوم لأجل الطعام اللازم لحياتي لاستوحيت سخرية الناس ولومهم فما عملته وقت أن كنت طفلاً كان يستوجب اللوم ولكن قد جرت العادة علي أن أكون محصناً عن اللوم لأنني لم أكن أفهم حتى إذا ما كبرت نبذت ما كنت أعمله من قبل لأنه في سن النمو لا يوجد أحد مهما أكره يعتمد أن يرفض ما هو صالح !!

أن الطفل يصرخ إذا شعر بما يؤلمه فهل هذا من الصلاح ولو إلى حين ؟ هل كان من الصلاح أن يصرخ الطفل بقساوة لإغاظة الناس حتى يضجرون وبالأخص إذا كان هؤلاء الناس هم مربيه الخصوصيين لأنهم لا يريحونه بسبب عدم معرفتهم الأسباب المباشرة لصراخه حتى يزيلوها ؟

أن للطفل طباع كثيرة فاضلة ولكنه لا يستطيع استخدامها لفائدته ليكون مسروراً بل هو يستعمل كل ما من شأنه أن يخيف الناس ويؤذيهم عندما لا تطاع رغبته التي لو حققها له لأصابته بضرر بليغ \*

إذن عجز أعضاء الطفل لا عجز إرادته هو سبب براءته !!!

لقد رأيت بنفسي طفلاً حسوداً لا يقدر أن يتكلم ومع ذلك فإنه عندما نظر إلى أخيه في الرضاعة اصفر لونه وبانت نظرة الحقد في عينيه !! من لا يعرف هذا ؟ إن الأمهات و المرضعات هن خير من يحدثنك عن الوسائل التي يستعملنها لعلاج أمثال هذه الحالات بطرق لا أعلمها !!!

أيمكن إذن أن يكون هذا الطفل الحسود بريئاً عندما يرفض أ، بشاركه أخوه في بنوع اللبن المتدفق بغزارة رغم شدة حاجته هو أيضاً إليه لأن عليه قوام حياته \*

إننا نتجاوز عن هذا العمل من الطفل لا لأنه ليس شراً ! ولا لأنه شراً طفيفاً ! ولكن لأن هذا الشر سوف يزول من نفس الطفل عندما يكبر ! وإنما وإن كنا قد سمحنا له في دور الطفولة فلن نسمح له به بناتاً عندما يكبر ويكتمل إدراكه \*

-12-

أنت أيتها الرب إلهي الذي أعطيت لطفولتي هذه الحياة كما نراها 0 أنت الذي زودت جسدي بهذه الاحساسات شاداً أعضائه مزيناً أحجامها ! كما أنك لأجل سلامتها وحسنها زودتها بكل ما يلزمها للحركات الحيوية !!

لقد أمرتني أن أسبحك علي هذه النعم !! وأرغم لاسمك أنت أيتها المتعالي جداً!! أنت وحدك الإله القادر علي كل شئ !! \* \* \* أنت ترفض التسييح لغيرك لأنك أنت وحدك القادر علي عمل ما لا يقدر أن يعمله الغير \* \* \* يا من وحدنا نبتك قالب كل الأشياء! أنت الذي بصلاح خلقت كل الأشياء حسنة ونظمت كل شئ بالناموس!

\* \* \*

أما ذلك الدور من حياتي الذي لا أتذكر عنه شيئاً ولم أعرف عنه إلا ما عرفني إياه الآخرون ولم أخمن ما خمنته عنه - وإن كان التخمين حقيقة - إلا من أطفال آخرين ، هذا الدور لا أحسبه ضمن حياتي التي أحيها في هذا العالم لأنه لا يوجد أقل من الزمن الذي قضيته في بطن أمي وهو مخفي في ظلال النسيان \* \* \* ولكني إذا كنت بالإثم صورت وبالخطيئة قد حبلت بي أمي فإني أتضرع إليك يا إلهي أن تعرفني أنا خادمك المركزي أين ، ومتي كنت قبل الحبل فإني وإن كنت اجترت هذه الحقبة فإنه يجب علي أن أعمل بما لا أقدر أن أتذكر له رسماً ؟ \*

-13-

دور الصبا

بعد أن اجترت دور الطفولة أتيت إلي دور الصبا أو بالحري أتيت إلي دور الصبا مكتسحا في طريقه دور الطفولة !! ودور الطفولة هذا لم يرتحل لأنه إلي أين يذهب ومع ذلك فإنه في الواقع غير موجود !!

لقد صرت الآن طفلاً أتكلم ولم أعد بعد رضيعاً أحرساً !! إنني أتذكر ذلك الدور كما أتذكر كيف كنت في ذلك الحين ألاحظ كيف أتعلم الكلام ولم يكن ذلك لأن من هم أكبر مني سنّاً علموني الألفاظ بطريقة نظامية كما تعلمت بقية العلوم فيما بعد بقليل ولكني تعلمت لأنني رغبت في تعلم الكلام ، وذلك لأنني كنت حتى الآن أعبر عن أفكارني حتى أحقق رغباتي بواسطة تلك الألفاظ المتقطعة القليلة التي أنادي بها ، وتلك الحركات المتنوعة التي تتحركها أطرافني غير أن تلك الألفاظ والحركات كانت قاصرة عن التعبير عن ما أردته أو من أردته !! فبدأت بتلك القرينة التي وهبتها لي يا إلهي أختبر كل صوت سمعته فعندما كانوا يذكرون أي شئ أثناء كلامهم كنت التفت وأنظر المقصود بهذا الشئ ، وكنت أفطن إلي ما يعنونه بالاسم الذي نادوا به إذ كان ظاهراً من حركات أجسادهم أن قصدهم كان هذا الشئ ولم يقصدوا غيره \*

إن اللغة الطبيعية لكل أمة تفسر بسحنة الوجه ولمحات العين وإشارات الأطراف ونغمات الصوت التي توضح أميال العقل الباطن حسبما يطلب أو يملك أو يتجنب !! وهكذا كنت بمدائمة الاستماع إلي الألفاظ التي تخطر علي بال الناس عندما يتذكرون جملاً مختلفة التفظ تدريجياً ما يكرروه ، ويتقليدي لهذه الألفاظ استطعت أن أنطق بما أريد وهكذا استطعت

أن أبادل من حولي الأصوات المألوفة لتحقيق رغباتنا !! حتى إذا نمت ذاكرتي اندفعت بأكثر فطنة لأتعلم كل الألفاظ التي تستعمل في المعاملات اللازمة للحياة البشرية مستعيناً في هذا بواسطة الوالدين ومن هم أكبر مني سنأ0

-14-

أه يا الله إلهي كم من سخریات وشقاوات ارتكبتها عندما فُرض عليّ وأنا صبي أن أطيع معلمي حتى أنجح في هذه الحياة وأتفوق في معرفة اللغة التي تؤدي إلي مدح البشر وتجلب للإنسان الثراء الخادع • ذهبت إلي المدرسة لأتزوّد بالعلوم دون أن أدري أنا المسكين التعيس أي فائدة ترحي لي منها وكنت إذا تهاونت فيها ضربوني!! هكذا جرت عدالة أجدادنا • لقد عبر الكثيرون نفس هذا الطريق ولكنهم لم يضعوا أمامنا إلا سبلا متعبة ضاعفوا بها المشقة والحزن علي أبناء آدم ولكنهم كانوا مسرورين لأن يجعلونا نجتاز كل هذا • في ذلك الوقت وجدت أن البشر يدعونك فتعلمت منهم أن أفكر فيك ، وأتطلع إليك كما أتطلع إلي منقذ عظيم وبالرغم من أنك كنت مخفياً عن حواسي فإنني أخذت أتصرع إليك وأنا صبي - يا عوني وملجأي - طالباً منك بغاية الاهتمام رغم صغر سني أن تستجيب لي وتساعدني فلا تجعلهم يضربوني في المدرسة وكنت لا تستجيب لي - حتى لا تسلمني إلي حماقتي ، لقد كنت أعتبر جلداتي وضربي أعظم المصائب وأشدها إبلاماً لنفسي ومع ذلك فإن من هم أكبر مني سنأ حتى والداي اللذان ما كانا يضمران لي سوءاً كانوا يسخرون من جلداتي وضربي •

-15-

هل توجد يا رب أي نفس شريفة للغاية ومتعلقة بك بشوق قوي جداً ترتكب حماقة ما؟؟؟؟ هل يوجد أي إنسان أمد بروح شريفة جداً من إيمانه بورع بك بسخر بقساوة من الآلام والمكائد والعذابات التي يعانها البشر في كل مكان يخوف شديد ويدعونك لتخلصهم منها كما سخر والونا بالعذابات التي قاسيناها في دور الصبا من معلمينا والتي كنا لا نخفيها عنهم بل كنا نحدثهم عنها كما كنا نصلي إليك كثيراً لتخلصنا منها؟؟ لقد أخطأنا في تقصيرنا في الكتابة والقراءة والدراسة ، ومع ذلك كانت هذه الخطيئة أقل من خطيئتنا في كوننا لم نطلب منك ذاكرة أو فهماً لتعطينا إياهما بما كفاية كإرادتك مع ما في ذلك من خسارة لنل إذ كان سرورنا الوحيد وقتذاك في اللعب وإن كنا نعاقب من أولئك الذين هم أنفسهم يلعبون !! •

هل يوجد إنسان سليم البصيرة يستصوب أن أضرب صبي لأنني ألعب بالكرة ومع ذلك فإنه يستصوب لعبي عندما أصير رجلاً وتكثر دروسي فأهملها وألعب بعدم لياقة •• لقد كان معلمي يغتاظ من رفيقه ويحسده إذا غلبه في مناقشة بسيطة ، ومع ذلك فإنني إذا تعديت علي من هزمني في لعب الكرة فإنه لم يكن يتردد في ضربي •

-16-

وحتى في هذا أخطأت أمامك أيها الرب الإله يا خالق ومدير كل شئ في الكون ! أخطأت أمامك أيها الرب لتجاوزي أوامر أساتذتي ووالدي لأن ما أرادوا أن أتعلمه لم يكن إلا لغائدي فضلا عن أن الباعث علي مخالفتي لهم لم يكن اختياري لما هو أفضل بل هو حبي للهو واللعب !!

لقد أحببت أن أتبه علي إخواني مزهواً بالنصر الذي كنت أحرزه في مشاجراتي كما أحببت أن أمتع أذني بالقصص الكاذبة فكانت بذلك تزدادان شوقاً إلي سماع أمثالها وعندما كنت أبصر من هم أكبر مني سنأ يلهون كانت تلمع عيناي ببريق الرغبة الملحة في استقصاء ما يعملون ومع أن أولئك اللاعبين كانوا يحبون أن يستمتع أبناءهم بلعبهم فإنهم ما كانوا يتأخرون عن ضربهم إذا وجدوا أن اللعب يعيقهم عن دروسهم حتى يجعلوهم يدركون إذا ما سبوا أن الفضل كل الفضل فيما وصلوا إليه هو لهم ••• ليتك تتطلع يا رب برأفتك إلي هذه الأمور وتخلصنا نحن الذين ندعوك الآن كما تخلص من لم يدعوك حتى الآن عندما يدعونك لتخلصهم •

-17-

لقد قرأت عندما كنت صبياً عن الحياة الأبدية التي وعد بها المؤمنون ونالوها بتدلل الرب إلهنا الذي أذعن مختاراً بشور كبيرائنا •

أما أنا فقد ختم علي بعلامة صليبيك وملحت بملحك } طقس في الكنيسة الغربية يسبق المعمودية ويشير إلى الطهارة والنقاوة القلبية وكنيستنا القبطية ترفض هذا الطقس ، وربما تكون هذه العبارة دخيلة علي الكتاب } عندما كنت في بطن أمي وإن كنت لم أعتمد إلا بعد أن ولدت وصرت رجلاً والذي أتذكره في هذا الصدد أنني أصبت بمرض فجائي في المعدة عندما كنت صبياً وقد بلغ من شدة المرض إنني منيت أشبه المشرفين علي الموت ! أما أنت يا إلهي وحارسي فقد رأيت بأي إيمان توجهت أنا إلى أمي طلباً بشوق من اهتمامها الصالح ومن كنيستك أمنا جميعاً أن تعمدني بمعمودية مسيحك !! إلهي وربّي ••• كم سبب هذا



الطلب اضطراباً عظيماً لأمي بالجسد ! أجل لقد تألم قلبها الرقيق كثيراً لأنها كانت تشك في أصل خلاصي وما كانت تريدني أن أتعمد إلا بعد أن أثبت في إيمانك بقلب طاهر !! لقد كانت أمي متلهفة لأن أتقدس وأتطهر بأسرارك المحيية ، وكانت تصلي لك أيها الرب يسوع المسيح يا غافر كل الخطايا !! وكانت متلهفة إلي هذا ولكنها خشيت أن أندس ثانية عندما أشفي من مرضي فيكون ذنبي أعظم وخطيتي أكبر فلهذا السبب أجلت معموديتي ، لقد كنت مؤمناً في ذلك الوقت وكذلك كانت أمي وجميع أهل البيت ما عدا أبي فإنه لم يكن مؤمناً ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يتغلب علي روح التقوى التي غرستها أمي في قلبي رغم إنني لم أكن بعد قد أمنت بك إيماناً رسمياً ! لقد اختارتك أمي يا إلهي أباً لي أفضل من أبي وقد ساعدتها علي أن تسود علي أبي في هذا الأمر بالرغم من أنها كانت تعيش مطيعة له واعتبرت طاعتها له طاعة لك لأنك أنت الذي أمرتها بطاعته !! أود أن أتعلم بشوق عظيم متضرعاً إليك يا إلهي أن تعرفني السبب الذي من أجله أجلت معموديتي في ذلك الوقت ؟ أكان لغائدتني أن يظل العنان مرخياً حتى أخطئ ؟ أم لأن العنان كان مشدوداً فقد أجلت معموديتي ؟؟؟ وإذا لم يكن العنان مشدوداً فلماذا لازلت أذكر ذلك الصوت الذي كان يدوي في كل الأنحاء في أذني (دعه وحده دعه يفعل ما يريد لأنه لم يتعمد بعد).

أفكان يجوز لهم أن يدعوني أن أفعل ما أريد لأنني لم أبرأ من مرضي الروحي مع أنني لو مرضت مرضاً جسدياً فإنه لا يوجد من يقول ( دع جرحه يتسع لأنه لم يبرأ بعد ) لأن الأفضل هو أن أشفي حالاً ؟ بعد ذلك وبمعمونة أصدقائي واجتهادي شفيت نفسي وحفظت سالمة في حراستك التي حرستها بها وهكذا حفظت في حالة أفضل إلي أن هبت علي بعد صباي عواصف التجارب الكثيرة والعظيمة التي زلزلت نفسي وهكذا تحققت نبوءة أمي عندما رفصت أن تعمدني خشية أن أعود إلي النجاسة بعد تطهيري \*

-18-

ومع ذلك ففي دور الصبا ( وكان خوفي فيه من العقاب أخف من دور الشباب ) لم أرغب في أن أستذكر دروسي وكرهت أن أحبر علي ذلك ومع ذلك فإنهم كانوا يجبروني وهكذا كنت أستذكر وكان هذا لخيري وإن كان لا فضل لي فيه إلا أنني لو لم لأحبر علي عمله لما عملته ولا فضل للإنسان فيما يعمله مرغماً حتى ولو كان ما يفعله خيراً ؟ ومع ذلك فإن الذين أجبروني علي عمل ما هو لخيري لم يعملوا خيراً فكل ما أصابني من خير قد نلته منك يا إلهي \* ذلك لأن الذين أجبروني علي أن أتعلم لم يقصدوا إلا أن استخدم علمي في الحصول علي ثروة فانية أو أنال مجداً مخزياً \*

أما أنت يا من حتى شعور رؤوسنا محصاة لديك فقد سخرت لغائدتني كل خطأ أجبروني علي أن أتعلمه وأنا الذي لم أرد أن أتعلم قد استخدمت لقصاصي عقاباً ملائماً معي كصبي صغير أوغل في الإثم إلي حد كبير وهكذا صنعت بي خيراً مستخدماً أولئك الذين لم يعملوا معي أي خير كما عاقبتني بعدل عن خطيبي لأنك هكذا وضعت قصاصاً خاصاً لكل من انحرفت عواطفه أو مال إلي طريق الشر

\*\*\*

-19-

ولكن لماذا كنت وأنا صبي أبغض اللغة اليونانية التي كنت أدرسها بغضاً كبيراً ؟ إنني إلي الآن لا أعلم سبباً دقيقاً لهذا \* ومع ذلك فقد أحببت اللغة اللاتينية ولكن ما أحبته منها لم يكن ذلك الذي تعلمته علي يد أساتذتي بالمدرسة من قراءة وكتابة وحساب فهذه الدروس كنت أعتبرها كأني يوناني حملاً ثقيلاً وعرماً كبيراً وإنما الذي أحبته هو ما تعلمته فيما بعد علي يد علماء النحو \*

ومع ذلك فإن هذا الحب لم يكن إلا من الخطيئة وغرور هذه الحياة واعتقادي في نفسي إنني لست إلا إنساناً يعني ويزول بلا عودة ولو لم أكن كذلك لفضلت الدروس الأولي بلا ريب لأنها كانت عملية أكثر من الثانية إذ بها أدركت وضيت ما أقرأ وبها كنت أكتب ما أريد \* أما الدروس الأخرى فقد كنت مجبراً علي مطالعة طياشة إينياس متعافلاً عن طيشي وأنوح علي ديدو المائنة لأنها قتلت نفسها من أجل الحب حتى جف الدمع في مقلتي ، وعشت أنوء بتعاسة نفسي زمناً طويلاً أشرفت فيه علي الموت غارقاً وسط هذه الأوهام البعيدة كل البعد عنك يا إله حياتي 0

-20-

أي تعاسة أكثر من تعاسة الإنسان الذي يبكي علي موت ديدو لمحبتها إينياس ولا يرثي بل ولا يبكي علي هلاك نفسه لافتقاره إلي محبتك يا إلهي \* أنت ضياء قلبي \* أنت خبز نفسي الروحي \* أنت القوة التي تعطي القوة لعقلي \* أنت الذي أحببت موات أمالي فكيف لا أحبك ، لقد ارتكبت الفسق ، وكذلك جميع من حولي كانوا يفسقون ضد إرادتك وهم يقولون لي ( حسناً تفعل ! حسناً تفعل ! ) غير علمين أن محبة هذا العالم هي عداوة لك \* لقد كانت عبارة ( حسناً تفعل ! حسناً تفعل ! ) تدوي في أذني دائماً حتى أصبحت لا أخجل من نفسي أنا الذي بكي علي ديدو المقتولة وكنيت طول الوقت أبحث لنفسي عن نهاية كنهايتها ( طالباً بالسيف طعنة وجرحاً قاتلاً ) نابتاً إياك أنا التراب والذي سوف يعود إلي التراب ؟؟؟ لقد كنت أحزن إذا منعت من قراءة هذه الأوهام كلها \* لقد كنت أحزن إذا منعت

من قراءة ما يحزنني معتبراً هذه الأوهام علماً أعلا وأسمى من العلم الذي تعلمت به كيف  
أقرأ وكيف أكتب \*

-21-

ولكن الآن ناد يا إلهي في أعماق نفسي ودع حقلك يخبرني قائلاً ( لا تفعل هذا ! لا تفعل هذا  
(لأن تلك الدراسات التي تعلمتها أولاً هي أفضل بمثير من الدراسات الأخرى حتى أنني الآن  
كم أود أن أنسي طياشة إينياس وكل العلوم الباقية التي تعلمتها علي أن لا أنسي القراءة  
والكتابة التي تعلمتها أولاً \*

ولكن علاوة علي دخول مدرسة العلوم كان يوجد هناك برفع {كان البرقع لباساً يدل علي  
الشرف وكان يلبس في أماكن العبادة وبعد ذلك أستعمل في المحاكم ثم في قصور  
القباصرة وفي بعض المنازل الخاصة \* { مرفوع يحجيني عنك ولم يكن هذا البرقع هو  
الفاصل الوحيد بيني وبينك بل كان يوجد هناك فاصل آخر يفصلني عنك - هو جهلي بك -  
الذي قد أعتذر به عن ضلالي \* \* \* لا تدع أولئك الذين لا أخافهم أن يقفوا ضد رغبات نفسي  
عندما أعتزف لك يا إلهي مدعناً للقصاص الذي أستحقه لسيري في طريق الشر لعلي أحب  
طرفك المستقيمة \*

لا تدع الأساتذة والتلاميذ اللذين ليس لهم بضاعة سوي أن يتاجروا في علم النحو والصرف  
أن يصيحوا في وجهي إذا قلت لهم إن القراءة والكتابة أفضل من كل علومكم لأنني إذا  
سألتهم عما إذا كان إينياس قد ذهب حقاً في وقت ما إلي قرطاجنة كما يقول الشاعر فإنهم  
دائماً يتخلفون فيما بينهم ويجب أصغر علمانهم بأنهم لا يعرفون ، ويجب أكبرهم [انه لم  
يذهب مع أنني لو سألتهم عن الأحرف التي يكتب بها الاسم إينياس بالنسبة إلي الروم التي  
اصطلح عليها البشر لما اختلفوا فيما بينهم و لأحابني كل من درس هذه الرسوم الإجابة  
بالضبط \*

لا بل إذا سألت عن أيهما يمكن أن يتغافل عن دراسته بدون ضرر يذكر أعني القراءة والكتابة  
أم تلك الخرافات الشعرية ؟ إنني أدرك مقدماً ما يجب به العقلاء 000 إذن أخطأت وأنا صبي  
إذ فضلت الدراسات التي لا قيمة لها علي تلك الدراسات العظيمة الأهمية \* لقد كان جمع  
 $1+1=2$  ،  $2+2=4$  لقد كان هذا العمل نشيد أنشاد منبؤ عندني أما قصة ( الحصان الخشبي  
الذي اختبأ فيه الجنود المسلحون ) و ( حريق تروي ) و ( روح كروزا ) و ( التشبيه المحزن ) لقد  
كانت هذه كلها المشهد الثمين الذي أتبه به فخوراً \*

-22-

لقد أبغضت العلماء اليونانيين الذين حاكوا قصصاً مماثلة لتلك القصص اللاتينية التي كنت  
شغوفاً بها \* لماذا ؟ بلا شك إن هوميروس قد حاك بمهارة فائقة خرافاته التي كان مرهوقاً بها  
جداً ومع ذلك فإن ما كتبه كان مرأاً لمذاقي الصباني \* \* \* هكذا كان شعوري عندما كنت أجبر  
علي قراءة هوميروس ولا شك أن الأطفال اليونانيين كانوا يشعرون بنفس الشعور عندما  
كانوا يجربون علي دراسة فرجيل \*

وفي الواقع أن الصعوبة كانت صعوبة دراسة لغة أجنبية فإنها وإن امتزجت بكل ما في  
الخرافة اليونانية من عزوبة فإني كنت أبغضها لأنني لم أكن أفهم منها شيئاً لذلك فقد  
أجبروني إجباراً قوياً وهددوني تهديداً قاسياً وعاقبوني أشد العقاب حتى حملوني علي أن  
أحفظها 00 لما كنت طفلاً لم أكن أعرف اللاتينية ولكن هذه تعلمتها بدون عذاب ورعب ، لقد  
تعلمتها بالملاحظة المجردة وقت تقبيل أقاربي لي داخل مخدعي ووقت المزاح مع أحبابي  
الذين كانوا يتتسمون لي ويشجعونني أثناء اللعب علي أن أتعلمها فتعلمتها بون إجبار ولا  
عقاب \*

لقد دفعني قلبي علي أن أتعلمها وكل ما قدرت علي أن أتعلمه قد تعلمته عن طريق حفظ  
الألفاظ التي كان يتكلم بها معي من علموني أن أعبر باللفظ عن كل إشارة أشير بها أمامهم  
فكان الفضل في تعليمي لهم ولم يكن الفضل لمن علموني بالمدرسة \* \* فالرغبة البحتة  
في المعرفة هي أقوى أثراً فيمن يدرس من ذلك الإكراه المخيف وإن كان الإكراه لازماً لقمع  
أوهام الحرية التي نجدها في نواميسك يا إلهي والتي لا يمكن ردعها إلا بقصاص كل من  
ينحرف عن الناموس أو قصاص كل من يدفعنا إلي الانحراف عنه ، فنواميسك وإن بدت  
ممزوجة بالمر إلا إن فيها الشفاء لنا لأنها تدعونا إليك مخلصه إيانا من تلك الشهوات المميتة  
التي أغوتنا عن طريقك \*

-23-

ويل لك أيها الشهوة إنك تسودين علي البشر وتجرفينهم في تيارك ، من يقدر أن يقف في  
طريقك ؟ إلي مني لا تضعف قوتك ؟ إلي مني تدفعين أبناء حواء في خصم محيطك الواسع  
المخيف ؟ ذلك المحيط الذي لا يقدر أن يعبره إلا الذي يقدر أن يحتمل البلايا !! ومع ذلك فهو لا  
يعبره إلا بالجهد \*

أيها الشهوة لقد تبينت سلطانتك في أسطورة المشتري { إله الرومان الأكبر } ! لقد كان  
ساحطاً عليك رغم فجوره ، ومع أنه لا يوجد المشتري إلا في عالم الخيال إلا أن ملفق  
أسطورهته قد وضعها في صورة الرعد المزعج الذي يدفع الناس بخبت إلي السير في طريق  
الفجور الحقيقي \* \* إذا قال طالب في مدرستنا لأحد أساتذته الذين يرتدون الجلباب ( إن



هذه الأساطير من عمل هوميروس والدليل علي ذلك إنه كان ينسب للآلهة أموراً بشرية ولم يأت لنا بدليل من عند الآلهة يؤيد زعمه ) \* إذا قال طالب هذا لأساتذته فانهم لا يلتفتون إليه ومع ذلك لابد أن يقول أحدهم وهو في ذلك يقول الحق (لاشك إن هذه الأساطير هي خرافات لأنها تيب أعمال البشر الشريرة إلي الطبيعة الإلهية وبذلك تدفع الناس إلي الفسق فلا يكون الفسق فسقاً لأن من يرتكب الفسق حينئذ يعتقد أنه لا يرتكب شراً وإنما يقتدي بالآلهة العلويين ) \*

-24-

أيتها الشهوة أنت سبل شرير يطرح البشر أنفسهم في تبارك وهم يلغون بأنفسهم فيك بحجة أنهم يتعلمون علماً وهذا العلم لا يتصلون عليه إلا بأفدح الأثمان !! حتى إذا وصلوا إلي أعلي درجاته نالوا شرفاً لا يناله بقية الطلبة فتقام لهم الاحتفالات الفخمة في الساحة العامة بروما ويكرمونهم لأنهم تعلموا القوانين، والحقيقة أنهم لم يتعلموا القوانين إلا ضمن ما تعلموه عنك \*

ويل لك أيتها الشهوة أنت تلطمين صحورك وتزمرجرين لكي تضمني النجاح أخيراً !! أنت تدسين السم في أرائك وتضعين في قلوب البشر أن يتعلموا هذه الأساطير لكي يحفظوا ألقاباً يتعلمون بها البلاغة ولكن هل يلزم الإنسان لكي يكون بليغاً أن يعرف هذه الألفاظ : غيث ذهبي - حزن - مخدع - هياكل علوية \* وغيرها من الألفاظ التي تشابهها \* \* \* هل لابد لكي نتعلم البلاغة أن نعرف أن ترنس قد أستحضر شاباً فاسقاً علي مكان عال \* \* هل لابد لكي نتعلم البلاغة أن نعرف بأن الإله المشتري قد أعوي شاباً مثل ما عمل ترنس ؟ \* \* \* ما الفائدة من حفظ مثل هذه الأشعار : ها أنا أنظر تمثالاً مكتوباً عليه الأسطورة

لقد نزل المشتري في غيث ذهبي لقد نزل إلي حزن دانا ليغويها لاحظ يا من تقرأ اعترافاتي كيف أن كاتب الأسطورة يعتمد أن يلدذ نفسه يذكر تلك الألفاظ القبيحة ناسياً ما فيها إلي القدرة العلوية التي يخاطبها بعد هذا قائلاً : من هو الله ؟ \* \* \* هو المشتري الكبير ! \* \* هو يدبر بصوته الهياكل العلوية السماوية ! فلماذا لا أعمل مثله أنا الإنسان المسكين المائت ؟ \* \* سأعمل !! وبكل قلبي سأعمل ! \*

لقد تعلمنا من هذه الأساطير ألقاباً كثيرة ، ومن هذه الألفاظ تعلمنا القبايح ومع ذلك فقد حفظنا هذه الألفاظ بصعوبة كبيرة حتى إذا حفظناها ارتكينا القبايح بدون أي خجل \* لست أدم الألفاظ التي تعلم القبايح في حد ذاتها مهما أختيرت بعناية إلا أنني أقول أن مثل هذه الألفاظ هي أوعية الإثم وخمر الخطية \* لقد شربنا تلك الخمرة من أساتذة ثملين ، وعندما كنا نرفض الشرب كانوا يضربوننا دون أن نجد قاضياً منصفاً نستغيث به \* أعترف في حضرتك الآن يا إلهي - بدون ألم - أنني من سوء حظي أنني تعلمت باختياري وبعزم كبير هذه الألفاظ وهذه القبايح حتى إذا برعت فيها قالوا عني ( إنه صبي يرحى منه ) \*

-25-

احتملني يا إلهي عندما أتكلم قليلاً عن ذكائي الذي هو عطيتك! هذا الذكاء الذي أضعته في الغرام الدنس ، لقد تسلطت علي فكرة جعلتني أهتم بالذم والمدح \* وعندما كنت أتلو كلمات جينو { وهو إله وثني } كنت أخاف أن أقع في الشرك التي وقع فيها كما ورد في أسطوره - :

هذا الأمير تروجان قد عاد من لتيوم إن الألفاظ التي نسبت إلي جينو في تلك الأسطورة ، لم يقلها مطلقاً ومع ذلك كنا مجبرين علي أن نصل في خطوات تلك الخرافات الشعرية ، وأن نقول نثراً كثيراً مما نطق به شعراً \* لقد كان كلامه عذياً للغاية ، لقد تجلت فيه ألام الغضب والحزن بدرجة فائقة جداً وكانت عباراته متسريلة بألفاظ مناسبة جداً للمحافظة علي شرف الأخلاق \* ولكن ماذا استفدته أنا من هذه الأسطورة يا إلهي يا حياتي المستقيمة ؟ ماذا استفدت من كون مقالاتي التي كتبتها في ذلك الوقت كانت أفضل من مقالات الكثيرين ممن هم في سني ومنزلتي ؟ ؟ \* \* \* أليس كل هذا بخار وهواء ؟ ؟ \* \* \* ألم يكن هناك علم آخر أتعلمه لأختبر به ذكائي ولساني ؟ أليست تسابيحك المدعمة بكتبك المقدسة يا رب هي الضربة السريعة النهائية التي أنتفج لها قلبي فسار في طريق الهداية بعد أن كان غنيمه دنسة لطيور السماء وسط هذه العلوم النافهة التي يقدم بها البشر أنفسهم ذبائح للملائكة الماردين.

-26-

لقد أضلنتني بعد ذلك أباطيل العالم وخرجت من كنفك يا إلهي ولم يكن ذلك الأمر عجباً ، لأنني لم أري أمامي نماذج أفتدي بها إلا أولئك الناس ، الذين كانوا يتحدثونني عن أعمالهم - التي وإن تكن غير شريرة في حد ذاتها إلا أنه كان من الخطأ أن يتحدثوا بها أمامي - لأنها تكشف أمام عيني أموراً ما كان يجب أن أعرفها !! فلما قوبل عملهم هذا باللوم والتفريع خجلوا من عملهم وأخذوا يتحدثون عن أنفسهم حديثاً طويلاً منمقاً للغاية قابله الناس بالنساء والمديح انتفخت له أوداجهم \* \* \* أما أنت يا رب فقد كنت تبصر كل هذا صامتاً- لأنك طويل الأناة وصادق كثير الرحمة - ولكن هل تسكت إلي الأبد؟ لقد أخرجت من هذا الطريق

المخيف تلك النفس التي كانت تبحث عنك !! تلك النفس العطشى إلي ينابيع العذبة !! لقد نادتك من أعماق القلب قائلة " لك أطلب ولوجهك يا رب أتمس " \*

إن الميول المظلمة ليست بخافية عليك ، ولا هي بعيدة عنك • فالبشر إنما يتعدون عنك ويعودون إليك بإرادتهم لا بأقدامهم ولا بتغيير المكان • فالابن الأصغر لم يتعد عنك لأنه نظر المركبات والخيول أو المراكب فسارع إليها ، كما أنه لم يتعد عنك سائراً علي قدميه إلي كوره بعيدة لينفق بإسراف كل ما أعطيته له عند سفره • وإنما ابتعد عنك عندما انصرف إلي شهواته وجرى وراء ميوله المظلمة • فهنا يكون البعد الحقيقي عنك ومع ذلك عندما أعطيته ما أعطيته له عند سفره كنت له أباً محباً ، وعندما عاد إليك فارغاً كنت له أكثر حياً •

-27-

تطلع أيها الرب من عليائك • تطلع بطول أناة كما هي عادتك ! تطلع إلي بني البشر كيف أنهم يحفظون بعناية زائدة القواعد المتفق عليها للحروف ومقاطع الكلمات التي تسلموها ممن سيقوهم متغافلين عن ذلك الميثاق الأزلي للخلاص الأبدي الذي سلمتنا إياه ! لذلك نري أساتذة اللغة وطلاب القوانين الوضعية للنطق يعضون الناس ويثورون عليهم إذا أخطأوا في القراءة وخالفوا قواعد النحو، فإذا قال إنسان بدلا من عبارة (وجود الإنسان) عبارة ( وجود الإنسان ) فإنهم يعضونه مع أنهم في أنفسهم يتمنون عدم ( وجود الإنسان ) الأمر الذي يكرهه أنت يا الله • وهذه البغضاء التي تثور في نفوس أولئك لا تقتصر علي مجرد البغض ، بل تتعداه إلي حد محاولة إيذاء من يعضونه علماً بأن حقدهم وبغضائهم يسيئان إليهم أكثر مما يسيئان إلي العدو الذي يضطهدونه •

إن معرفة النطق ليست مسألة غريزية في الإنسان بعكس شهادة الضمير • ومع ذلك فإنه إذا وقف عالم بشري لا وازع له من ضمير أمام قاضٍ مشتكياً خصمه بحضور جمع من الناس ، فإنه يعمل علي إحادة النطق بالألفاظ محاذراً أن يخطئ في قواعد النحو فينطق عبارة ( وجود الإنسان ) جيداً في الوقت الذي ينساق فيه في غضبه فلا يحذر أن يفضي علي ( وجود الإنسان ) بعمله علي القضاء علي خصمه ، لأنك أنت يا إلهي فد أنسيته الحكمة • حقاً يا لعمق حكمتكم يا الله ! ما أعظمك لأنك أنت العظيم وحدك ! إنك في سموك تجلس صامتاً ، وتقضي - بشرع غير محلل - بالجهل علي كل من انحرف عن طريقك ، وانساق وراء رغباته الشريرة.

-28-

هكذا كان حال العالم الذي من بابه دخلت أنا التعيس في دور صباي • هذا هو الميدان الذي خشيت فيه أن ارتكب خطأ في قواعد اللغة مع إنني ارتكبت خطأ أعظم لأنني كنت أحسد الذين لا يخطئون فيها ••• إنني أتكلم عن هذه الأشياء معترفاً أمامك يا إلهي بأنني كنت أعتبر كل ما يمدحني الناس لأجله ، وكل ما يسرهم ، إنما هو الصالح دون أن أعرف في أية هاوية ترديت ، حتى صرت مكروهاً أمام عينيك ••• أما قبل ذلك فقد كنت أكثر غباوة حتى إنني كنت أكرر نفسي بأكاذيب لا حصر لها • وكنت أخدع مهذبي ووالدي وأسائدي بطرق متنوعة لألهو كما أريد 0 أما المناظر الباطلة فقد كنت شغوفاً بمحاكاتها مهما كلفني ذلك من ثمن ، حتى إنني لم أكن أنردد في سرقة مؤونة والدي ومائدتهما ، وأعطي ما أسرقه للأطفال حتى يبيعوني لعيهم مع أن حبهم فيها لم يكن أقل من حبي لها ، كل هذا بدافع طمعي وأنانيتي ••• لقد كنت ألهو وألعب وحتى في لعبي لم أكن أقنع بما هو حق ، بل استولت علي رغبة الزعامة الباطلة • فكنت أقسو علي الآخرين وأعيرهم إذا أخطأوا مع أنني كنت لا أتحمل منهم المثل إذا أخطأت ، فعندما كان يوبخني أي إنسان علي خطأ ، كنت لا أدعن للحق وأختار أن أحاصمه علي أن أستسلم لتوبيخه ••••• هل هذه هي براءة الصبا ؟ إنها ليست كذلك • استغيت برحمتك يا إلهي من هذه الأثام التي نمت بذرتها في نفسي عندما صرت أكبر سناً 0

لقد كانت هذه أثماتي مع مهذبي وأسائدي فصارت مع الحكام والملوك • لقد كانت هذه الأثام تظهر عند النزاع علي عصغور أو بندقة أو كرة ، وعندما كبرت صارت تظهر في النزاع علي الذهب والأراضي والعييد • وهكذا تغيرت أيضاً عقوبة أثماتي فحل محل الضرب بالعصا التي يعاقب بها الصبي عقوبات أخرى أكثر صرامة • لقد كانت أثم صباي تدعي وقتئذ بساطة الطفولة التي تكني عن المسكنة التي مدحتها يا ملكنا عندما قلت " إن لمثل هؤلاء ملكوت السموات " •

-29-

ومع ذلك أيها الرب خالق المسكونة وقاضيها ، أنت أيها الغافق جداً والصالح جداً هو الذي يليق بك الشكر يا إلهنا لأنك منحت هذا الامتياز للأولاد فقط لأنني وأنا منهم قد عشت وسقطت في الخطية ورغم ذلك فإنني قد تحصلت علي تلك الذخيرة الثابتة إذ كنت متجداً بك اتحاداً سرياً ولقد أدركت سر ذلك الاتحاد بإحساسي الداخلي وأنا أفكر في تلك الأمور الدقيقة التي كانت تتابع أمامي فأشعر بها وأفكر فيها • لذلك تعلمت أن أبتهج بالحق وكرهت أن أصل • لقد كانت لي رعم صغر سني تلك الذاكرة القوية التي وهبتها لي والتي تجلت في الخطابة ، وإذ كنت أحب الناس وأحب أن أكون لطيفاً معهم فقد تجنبت الأذى

والخسة والجهل \*\*\* ما أعجب هذا وما أغربه !! ولكن هذه كلها مواهبك لي يا إلهي التي لم  
أمنحها لنفسي • هي مواهب صالحة وهي معاً معي هي أنا نفسي •  
صالح إذن الذي خلقني وهو صلاحني وأمامه أتهلل بكل شيء حسن كان عندي وأنا صبي •  
لقد كانت خطيبي - وليست خطيبي أنا وحدي ، بل خطايا كل مخلوق آخر - لقد كانت  
خطيبي إنني سعت في الحصول علي الملذات والمجد الباطل مع إنني كنت أطلب الحق  
وهكذا سقطت بنزق في الأحزان والاضطرابات والزلات •  
الشكر واجب لك يا إلهي يا فرحي وفخري ورجائي • الشكر واجب لك علي عطاياك فهل  
ستديمها لي ما دمت ستحافظ علي ؟ إن هذه الأشياء التي أعطيتني إياها ستزداد وتكمل  
وأنا نفسي سأكون معك ما دمت أنت قد وهبتني أيضاً هذه المواهب !!

## الكتاب الثاني

=====

أمراض أخرى ساقته إليها البطالة ولم تنكشف إلا في السادسة عشرة من عمره •

مصائب المعاشرات الرديئة التي انقاد بسببها إلي السرقة •

-1-

### اندفاع القديس وراء شهواته

سأتذكر الآن شروري القديمة وشهوات نفسي الدنسة لا لأنني أحبها ولكن لعلي أحبك يا إلهي حباً عظيماً • سأنصفح في ذاكرة نفسي الحزينة الشرور العظيمة التي ارتكبتها لعلك تتراءف بي ( يا من لا تغني حلاوتك ، أياها المبارك يا من حلاوتك هي الحلاوة الحقّة ) • أنت الذي أختطفنتني من طرق الخلاعة التي كنت فيها تأنها شريداً منصرفاً عنك أياها الإله الصالح وحده • لقد أبحث لنفسي كل منكر لأن نفسي كانت تميل إلي الاستمتاع باللذات الدنيا ، فتجرت علي أن أساق في تبارها هائماً بشتي الأوهام الحالكة الظلام حتى ذبل جمالي وصرت مكروهاً أمامك لأن نفسي تلذت بمحبة العالم 0

-2-

لقد كانت غاية مناي أن أحب وأن أكون محبوباً • ولكني لم أجعل مقياس حبي هو الصداقة البرينة الممزوجة باحترام آراء الغير • بل جعلت مقياس حبي هو شهوة الجسد الترابية وغرور الشباب الباطل ، فأفسحت مجالاً في قلبي لحب الأحزان فتراكمت عليه ، وفقدت القدرة علي التمييز بين بهاء المحبة النقي وضباب الشهوة الملوث الذي كان يثير اضطرابي ويدفع بشبابي السابح فوق هوة الرغبات الدنسة إلي الغرق في خليج القباحة • لقد تجمع علي غضبك ولم أدر به لأن أذني قد صمتا برنين قيود الموت الذي هو عقاب كل منكر النفس فازددت ضلالاً فوق ضلال • أما أنت فقد بقيت صامتاً وتركنتني أنخبط وحدي في المجون والعهارة •

أواه يا إلهي ••••• يا نهاية أفراحي لقد زادني صمتك في ذلك الوقت ضلالاً وبعداً عنك ، وقد ضللت أكثر فأكثر عندما تشامخت بتلك الأحزان المرة عديمة الفائدة التي سببت كآبتي وضجري واضطرابي •

-3-

### كلمة الله تخفف أحزانه الناجمة عن الاندفاع وراء الشهوات

أه يا إلهي ••••• لقد أرسلت إلي في ذلك الوقت من لطف أحزاني ، وعدد لي ما فقدته من جمال بشروري ، كي أعود وأسير في طريق الخير الذي خلقتنا لأجله ، فوضع هذا حداً لشهوات شبابي ، فلما لم أستطع أن أقمعها فكرت في أن أتزوج ، وعزمت فعلا علي تكوين أسرة كما فرض ناموسك يا رب ، يا من اخترت هذه الوسيلة لتقيم من موتنا نسلًا ، وأنت القادر أن تخفف بيدك الجنون وخر الأشواك التي طردنا بسببها من الفردوس • إن قوتك يا رب ليست بعيدة عنا ، ونحن لسنا بعيدين عنك ، وكان يجب علي أن أحذر جيداً وأصغي إلي ذلك الصوت الآتي من السماء القائل " : مثل هؤلاء يكون لهم صيق في الجسد وأما أنا فأشفق عليكم • حسن للرجل أن لا يمس امرأة 0 غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضي امرأته " { ١ كو ٧ : ٢٢ } •

-4-

كان من الواجب أن أصغي وأن أنتبه جيداً لهذه الكلمات ، وأن أنتظر بكل سرور معانقائك لي ، لأنني كنت مغروراً لأجل ملكوت السموات ، ولكنني ••••• أنا الشقي المسكين ••••• قد أزيدت مثل بحر مضطرب نارة أعلو وطوراً أنخفض ••••• نابدأ إياك متجاوزاً كل أوامرك ومع ذلك فلم أستطع أن أنجو من سياط تاديبك • ولم يقدر البشر أن يعملوا بي شيئاً لأنك وإن كنت صارماً معي ، فقد كنت رحيماً بي ، لذلك مزجت لذاتي المجرمة بمرارة الحزن كي أبحث عن لذة لا كدر فيها 000 ولكن أين أحد هذا ؟ لم أحد هذا إلا فيك يا رب يا من بأحزاننا تدرّبنا ، يا من تجرحنا لتشفينا ، وتميتنا لتحيينا ، حتى إذا متنا فإننا لا نموت بعيداً عنك •

في أي مكان كنت موجوداً ؟ وإلي أي مدي كنت منغياً عن مسرات بينك عندما كنت في السادسة عشرة من عمري خاضعاً لسلطان جنون الشهوة • مطلقاً لجسدي العنان حتى تمرغ في الإثم مخالفاً شرائعك ؟ لقد أسلمت نفسي لشهوات الجسد ••••• ولم يكن هناك بين أصدقائي من يسعي لإنقاذي لأن كل اهتمامهم كان منصرفاً في أن أبرع في علم الكلام كي أصبح فيما بعد خطيباً يشار إليه بالبنان •

-5-

### انقطاعه مؤقتاً عن الدراسة

في تلك السنة التي تلت عودتي من مادورا { كانت مدينة كبيرة في شمال أفريقيا وقد صارت الآن قرية صغيرة } وهي إحدى المدن المجاورة التي كنت أتعلم فيها علم البيان والصرف . في تلك السنة انقطعت عن دراستي مؤقتاً لأن أبي عجز عن تزويدي بنفقات الرحلة إلي قرطاجنة التي كان يريد أن أتعلم فيها . لقد كانت نفقات الرحلة فوق طاقته لأنه لم يكن من الأغنياء بل كان من أحرار ( ساحسته ) الفقراء . ومع ذلك فإن عجزه لم يمنعه من إعداد نفقات رحلة أخرى . لمن أقول هذا ؟ لست أقول هذا لك يا إلهي لأنك تعرف نسبي وإنما أقول هذا لذلك العدد القليل من البشر الذي قد يعثر علي كتاباتي هذه . ولكن لأي سبب أقول هذا ؟ إنني أقوله لكي يعرف من يقرأه إنني كنت أصرخ إليك من الأعماق لأنه ليس هناك ما هو أفضل ولا ما هو أقرب إلي أذنك من قلب معترف وحياة مؤمنة .

من لا يعظم أبي ؟ لقد تمكن بمهارته أن يمدني بكل ما يلزم كثيرين غيره من ضروريات لأجل الدراسة ، لقد توافرت لدي مواطنين كثيرين غيره إمكانيات مادية أكثر منه ولكنهم لم يصنعوا مع أبنائهم مثل ما صنع بي أبي ، ومع ذلك فإن أبي لم يعبأ كثيراً بأن يجعلني واحداً من أبنائك الأبطال حتى أنه بالرغم من أنني قد صرت خطيباً مفوهاً فإني كنت غير لائق لخدمتك يا الله يا من أنت هو الحق وحده ، والرب الصالح لأن يحتل سويداء قلبي .

-6-

في السادسة عشرة من عمري ، في تلك الفترة التي تعطلتها عن الدراسة بسبب حرج مركز والدي المالي ، كنت أعيش مع أسرتي فإزدادت وخزات الرغبات النجسة ، وتمكنت بشدة من نفسي دون أن تمتد يد لتخلصني منها . لقد كنت في سن البلوغ ، وكان شباهي فائراً ، فكنت أذهب إلي الحمامات وهناك كان أبي يراني فيذهب إلي أمي مسروراً ويخبرها بفرح عما كان يشاهده ، لقد كان يود أن أشب علي شاكلته ، فكانت تسعده تلك الاحساسات الرديئة التي كنت أشعر بها ، تلك الاحساسات التي جعلت العالم ينسأك أنت الخالق ويغتن بخليقتك عوضاً عنك ، لقد سكرت بأبخرة تلك الخمر غير المنظورة ، وتمكنت من نفسي مشاهد النجاسة فخررت ساجداً لها .

أما أنت فقد وضعت من قبل في قلب أمي أن تعديني لأكون هيكلك المقدس ، وبيتاً صالحاً لسكنائك ، ولم يكن أبي قد تعمد بعد وإن كان قد ترشح أخيراً للعماد لذلك كانت أمي منزوعة وخائفة خوفاً ظاهراً ومرتعدة ، لقد أزعجتها تلك الطرق الملتوية التي يسلكها من يديرون لك ظهورهم رغم أنني لم أكن قد تعمدت .

-7-

وبلي . . . . لأنني تجرأت وقلت إنك لزمتم الصمت يا إلهي عندما تماديت أنا في ضلالي بعيداً عنك . . . . أحفاً أنك لزمتم الصمت نحوي ؟ ولمن سواك إذن كانت تلك الكلمات التي رنمت بها في أذني بواسطة أمي المؤمنة بك دون أن يستقر في قلبي شيء منها لأعمل به ؟ . . . . إنني أتذكر جيداً كيف أنها كانت بغاية اللهفة تذرني في الخفاء قائلة : " لا ترتكب فسقاً وعلي الأخص لا تدنس أبداً زوجة رجل آخره " .

لقد كانت هذه الأقوال تظهر لي إنها نصائح نساء وكان يجب علي أن أشعر بالخل من نفسي إذا أظعتها ، فلم أظعها لأنني لم أكن أعلم إنها إرشاداتك . وهكذا ظننت أنك كنت صامتاً عني فكنت أهزأ بإرشادات أمي أنا أبنها . . . أنا ابن أمتك دون أن أعلم هذا . لقد اندفعت بنزق وعباوة في طريق الفسق حتى إنه كان يخجلني أن أكون أقل أندادي فسقاً ورغماً من أنهم عندما كانوا يفاخرون بفسقهم كان مقامهم يزداد انحطاطاً إلا أنني تلذذت بصحبتهم . لم أتلذذ فقط بالفسق معهم بل تلذذت أيضاً بالمديح ، ولما لم يكن هناك ما يستوجب المديح سوى الرذيلة فقد بلغت في وصف الرذائل التي كنت أنسبها لنفسي ، لقد صورت نفسي بأشرف مما كنت عليه لكي لا أذم حتى إنني في الوقت الذي لم أكن قد ارتكبت فيه شيئاً من المنكر كنت أنسب لنفسي ما لم أعمله لئلا أحتقر لبراءتي وعفافي .

-8-

لقد سرت مع رفقائي وما أدراك أي رفقاء كانوا ؟ ! لقد سرت معهم في شوارع بابل وتمرغت في الحمأة كما لو كانت وادي أطياب وعبور ثمينة ! لقد ناء علي ذلك العدو الخفي بكللكه وأعاوني حتى وصلت بسرعة إلي قرار الحمأة ، وقد ساعد علي ذلك أن أمي بالجسد لم تكن معي ( لقد فرت هاربة من وسط بابل ولكنها لم تتقدم بسرعة إلي التخوم ) لكم نصحتني أمي أن أعيش طاهراً . . . لقد علمت بسلوكي مما سمعته من زوجها وكانت خضوعاً منها له مضطرة لأن تعض الطرف عن كلامه ( إذ لم يكن من السهل وهي زوجته أن تعارض رغباته ) .

لقد كانت تفكر في ربطتي برباط الزوجية علي أساس مكين . ولكنها خشيت أن يكون في الزواج خطر علي وعلي مستقبلتي في ذلك الوقت ، فلم تسارع إلي زواجي حتى لا تقف الزوجة حاجزاً ومانعاً يمني من تحقيق آمالي . ولم تكن هذه الآمال هي آمال الدهر الآتي ، بل كان أملها في أن أبلغ شأواً بعيداً في الحصول علي العلوم التي كان أبي وأمي تائقين إلي أن أتعلمها .

إن أبي في ذلك الوقت لم يكن بعد قد فكر فيك ، وكانت التصورات الباطلة هي التي يفكر لي فيها • أما أمي فكانت تظن أن إقبالي علي العلم يبعدي عن الزواج وقد يقربني قليلاً منك • هذا هو الترتيب الذي أعده لي والدي والذي لا زلت أتذكره جيداً • لقد كانت الأجنة إذ ذاك مرخاة لي وكان يجب قمعي بكل شدة ممكنة لكي لا أضيع وقتي في الطرب والمجون وفي كل ما كنت أشتهيه • في سحابة هذه الأوهام كلها احتجب عني ضياء حقك يا إلهي فأفتضح إثمي وكان عظيماً0

-9-

كيف كنت أسرق الكمثري ؟

ليس ناموسك فحسب هو الذي يعاقب علي السرقة ، وإنما أيضاً الناموس الطبيعي المطبوع علي قلوب البشر لا يقر هذا الإثم، فأني لص يقبل أن يساكن لصاً ؟ وأي لص ثري يسلب عن غير احتياج ؟ ومع ذلك فإنني اشتبهت أن أسرق فسرفت ، لم أكن مسوفاً إلي السرقة بدافع الجوع أو الفقر ولكن بدافع حب الإثم ، لأن ما كنت أسرقه كان لدي منه الكفاية بل ما هو أفضل منه ، لذلك لم يكن يسعدني ما أسرقه بل كانت سعادتي بالسرقة ذاتها وبالإثم نفسه •

هناك بالقرب من كرمنا كانت توجد شجرة كمثري مليئة بالثمار التي كنت مغرماً بسرقتها !! إنني لا أعلم السر بگرامي في سرقة هذه الكمثري !!؟ أكان ذلك راجعاً إلي جمال لونها ؟؟ أم لذيذ طعمها ؟؟ ففي ليلة ليلاء بعد أن تحولنا حسب عادتنا في شوارع المدينة متنزهين إلي وقت متأخر مضيت مع بعض أتباعنا إلي الشجرة وسرقناها وحملنا منها أحمالاً ثقيلة لا لناكلها ولكن لنرميها بعد أن نذوقها الخنازير • هكذا كنا نسرق لا لسبب إلا لكون السرقة أمراً ممنوعاً ! •

ها هو ذا قلبي يا الله ! ها هو ذا قلبي الذي رحمته !! لقد كان في قاع هاوية لا قرار لهل فدعه - بعد أن تنظر إليه - أن يخبرك عما كنت أبعيه بهذا العمل حتى كنت أقدم علي ارتكابه مختاراً ورغم عدم ميلي إلي الشر فقد طلبت الشر بعينه ، لقد كان شراً ومع ذلك أحبته !! لقد أحببت أن أهلك !! لقد أحببت إثمي الخاص ليس الإثم الذي استحققت اللوم بسببه بل أحببت الإثم نفسه • نفس شريرة ساقطة من علباء سمائك لتنتشر الهلاك غير باحثه عما قد يخجل بل طالبة الخجل نفسه •

-10-

لماذا يطلب الناس الأدنى ويرفضون الأسمى ؟

إن للذهب والفضة وغيرها من الأشياء الجميلة حاذبية تأسر النفوس لذلك تتأثر الشعور بلمسها كما يتأثر بها بقية الحواس بحسب ما تجد فيها من مآرب خاصة •• كذلك للمجد العالمي وحب السيطرة والاعتزاز بالنفس لها أيضاً جمالها • وكذلك للانتقام دوافعه ومراميه فليس من يسعي إليه بلا سبب • ولا يتأني للإنسان أن يصل إلي بعينه من هذه الأشياء جميعاً ما لم يخالفك ويعرج عن ناموسك ••• إن لهذه الحياة التي نحياها سحراً خاصاً في بعض المناسبات الخاصة وذلك عندما تقترن بها تلك الأشياء الجميلة •

كذلك للصدقة البشرية جمالها ولا يكون ذلك إلا عندما ترتبط أرواح الكثيرين برباط متين توحد بينها 00 هذه الأشياء جميعاً هي سبب الخطيئة وبسببها يرتكب الإثم • لأننا عندما نهوي هذه الأشياء الجميلة الدينية نرفض ما هو أفضل وأسمى ، الذي هو أنت أيها الرب إلهنا • ونرفض حقك وناموسك • إننا نسرر بهذه الأشياء الصغرى التي لا يمكن أن يعد السرور بها شيئاً مذكوراً إذا قيس بسرورنا بخالفها الذي به يبتهج البار وهو فرح مستقيم القلب !

-11-

لو قال قائل إن حب هذه الأشياء الدنيا يسبب الشر ، فإننا لا نصدق إلا إذا لمسنا الشر بأيدينا لأن الفائدة التي نرجوها من وراء هذه الأشياء حتى ولو كانت قليلة تحببنا فيها ، فنخاف أن نفقدها مع ما فيها من حسن وجمال ، ومع هذا فإننا إذا قارنا فوائد هذه الأشياء بالفوائد الأكثر سمواً وبهجة فإنها تكون حقيرة ودينية

لماذا يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟؟؟

إنه يقتله إذا هام بزوجه ! أو طمع في عقاره أو أختلس شيئاً من ماله لأجل معيشته أو هاجمه قاصداً الإساءة إليه ، ولكن أيمن أن يرتكب أحد الناس جريمة قتل بلا سبب ولمجرد السرور فقط بالقتل ؟ من يصدق هذا ؟ ••• إن الإنسان الشرير والجائر الذي يقتل عندما يثور بوحشية من تلقاء نفسه إنما يفعل ذلك لأنه نشأ شريراً عاطل البد والفكر • ولكن إلي أي مدي يندفع في طريقه ؟؟ لا شك أنه إذا هاجم مدينة من المدن فإن شروره لن تغف إلا إذا أستولي عليها واغتصب ملكها وغنم كل ما فيها وشعر بأنه قد أصبح بعيداً عن سطوة القوانين وارتباكات الضرورات العائلية وإحساس الشعور بالمسئولية • لذلك فإن ( كاتلين ) لم يحب شروره ولكنه ارتكبها لسبب آخر •

-12-

لماذا أحب سرقة الكمثري ؟

ماذا أحببت فيك - أنا النعيس - أيتها السرقة يا صنيعة غيائي؟! أنت لم تكوني حسنة لي - عندما كنت في السادسة عشرة من عمري - لأنك أنت هي السرقة • ولكن كيف أحاطبك هكذا ؟ أنت شيء حي ؟ ؟ ••• إن الكمثري التي كنا نسرقها كانت جميلة لأنها خليقتك يا الله وأنت أبرهي الكل ، خالق الكل ، أنت الإله السامي الصلاح وصلاحه حق 0000 جميلة كانت تلك الكمثري ، ومع ذلك فإن نفسي الشقية لم تمل إليها لقد كنت أجمع أحمل ما علي الشجرة لمجرد السرقة وبعد أن أجمعه كنت ألقى به للخنازير، وكانت لذتي الوحيدة في هذا كله هو إثمي الذي كنت في غاية السرور لأن أتلذذ به والذي لم أكن أشعر بعدوئته إلا عندما أضع الكمثري في فمي •

والآن إنني أتساءل أيها الرب إلهي عما سرتني في السرقة التي لم يكن لها أي جمال ، ولست أعني بالجمال مثل ذلك الجمال الذي في الحق والحكمة ، أو ذلك الجمال الموجود في العقل والذاكرة والعاطفة وحياة البشر الحيوانية ، أو ذلك الجمال الموجود في النجوم البهية التي تتلألأ في أبراجها ، أو ذلك الجمال الموجود في الأرض والبحر المملوئين بأحثة الحياة والتي تستبدل بتناسلها نسلاً جديداً عوضاً عن ذلك النسل الذي يفني ، ولا أيضاً ذلك الجمال الخيالي الكاذب الذي يكون في ارتكاب بعض الرذائل الخاصة •

-13-

أنت وحدك يا الله هو الإله المتسامي فوق الكل • ومهما تكبر الإنسان فإنه لا يمكن أن

يدانبك في سموك •

إن الطموح يدفع الإنسان للسعي وراء الكرامة والمجد ولكن أنت وحدك الممجد والمكرم إلي الأبد فوق كل الأشياء •

إذا قسني العظيم فإن قسوته تعال بالاستسلام والطاعة • ولكن من يجب أن يُطاع بسرور واستسلام سواك وحدك يا أعظم العظماء ؟ ! يا من لا يقدر أحد أن يغتصب حقه في أي زمان ومكان

إذا تحنن الظالم فإن حنوه وعطفه يدعي محبة • ولكن أ يوجد ما هو أكثر حناناً من محبتك ؟ أ يوجد شيء يمكن أن يحب كما يجب أن يحب حقك الذي يتلألأ ساطعاً فوق الجميع ؟؟ الرغبة في المعرفة والرغبة في التعلم متشابهتان ولكن مهما بلغ الإنسان من العلم والمعرفة فلا يمكن أن يصل إلي سمو معرفتك •

الغباء والجهل يستتران تحت أسم الوداعة وعدم الرغبة في إبداء الغير ولكن أ يوجد هناك ما هو أكثر منك وداعة يا أيها العالم بكل شيء ؟؟ مهما قل الضرر الذي يصيب الخاطيء فإن ضرره لا يتأني إلا من أعماله •

الكسل يدفع الإنسان إلي طلب الراحة ، ولكن أين توجد الراحة الدائمة إلا بقربك أيها الرب ؟؟ لا تلذذ إلا في الراحة وسعة العيش ، ولكن أنت وحدك كمال الكثرة غير الزائلة للملذات غير الفاسدة

التبذير يشير إلي السخاء ، ولكنك أنت المعطي كل صلاح بأكثر وفرة •

الطمع يجعل الإنسان يشتهي امتلاك أشياء كثيرة ولكنك مع كونك لست طماعاً تملك كل شيء

الحسد يجعل الإنسان يحسد أخاه الإنسان لأجل الفخر ، ولكن أي فخر يعادل فخارك أنت الذي لا يحسدك أحد ؟؟

الغضب يولد في النفس الرغبة في الانتقام ولكن من يقدر أن ينتقم بحق أكثر منك أيها المنتقم الجبار ؟؟

الخوف يجعل الإنسان قلقاً بسبب كل أمر مفاجئ غير مألوف فيتبصر في العواقب لضمان السلامة ، ولكن هل يوجد ما يفاجئك ؟؟ أو ما هو غير مألوف لديك ؟ وهل يستطيع أحد أن ينزع منك ما تحبه يا من لا توجد السلامة الدائمة إلا بقربه ؟؟

الحزن يكون بسبب الحسرة علي ما فقد مع ما فيه من بهجة ولذة ، فهل تساوي هذه البهجة واللذة بهجة ولذة جمالك ؟ .

-14-

كل نفس تبعد عنك ترتكب الفسق وتطلب الدنس والفساد حتى تعود إليك • الذين يسرون في طريق الفساد يشبهون الذين يحيدون بعيداً عنك ويحاربونك • وكل من يتشبهون بك يفخرون بانك خالق الكون ولا يعرفون مكانا يلتجئون إليه بعيداً عنك • إذن ماذا أحببت فيك أيتها السرقة ؟ وفي أي شيء بارتكابك شابهت ربي ؟ ••• أكان ذلك لأنني أردت أن أظهر قدرتي علي كسر ناموسك فسرقته ؟ ؟ أم كان ذلك لأنني وقد كنت مغلوباً علي أمرتي ولم أجد ما أستطيع أن أقلدك فيه إلا أن أعمل سدي مل لا يسوغ لي أن أعمله وأمثل تلك المهازل متمتعاً بحرية مشلولة ما كان من حقي أن أتمنع بها فاصداً بهذا أن يكون لي صورة غامضة من جبروتك ؟!

ها هو ذا خادمك قد هرب من سيده بعيداً عن كل شر • أه من فساد الحياة ووحشتها

أه ما أعمق الموت !! لقد قدرت أن أحب ما لم أكن أحبه لأنني لم أقدر أن أحبه •



-15-

بماذا أكافئ الرب ؟ لأن نفسي الآن تتذكر هذه الأشياء جميعها، ومع ذلك لا أخاف منها ؟؟  
أحبك يا رب وأشكرك وأعترف لأسمك لأنك قد غفرت لي هذه الكبائر • لقد ذابت أنامي كما لو  
كانت ثلجاً بفضل حرارة إحسانك ورحمتك • لإحسانك الفضل فيما لم أفعله من شر • لأن كل  
ما لم أفعله من شر لم أفعله إلا بإرشادك • لأنه من هو الإنسان الذي يتجاسر - رغم  
إحساسه بضعفه - أن ينسب إلي نفسه الفضل في طهارته وبره ؟؟ ومن يفعل هذا إلا غير  
المحتاج إلي رحمتك التي تغفر بها أثم الخطاة التائبين لذلك فهو لا يحبك كثيراً بل يحبك أقل  
من كل شيء •

لا تجعل كل من تدعوه ويتبع صوتك ويتجنب ارتكاب ما قرأه عن تلك الخطايا التي أعترف بها  
أمامك ، لا تجعله يحتقرني أنا الذي كنت مريضاً فشفاني ذلك الطبيب الذي صرت بمعونته  
كأنني لم أكن مريضاً أو بالأحرى صرت أخف مرضاً ••• دع الإنسان الذي يقرأ هذا يحبك كثيراً  
!! بل ليزدد حبه لك أكثر جداً عندما يراني وقد شفيت من إثم العميق ، لأنه سيرى نفسه  
أيضاً وقد شفي بواسطة رحمتك من إثمه المماثل لإثمى •

-16-

ماذا جنيت - أنا الإنسان الشقي - من وراء تلك الأشياء التي ذكرها يبعث الخجل في نفسي  
وخصوصاً تلك السرقة التي أحببتها لذاتها دون أن يكون فيها ما يعتد به ، ومع ذلك فلي  
أرتكبها بمفردي • أجل ! إنني لم أكن أسرق في ذلك الوقت بمفردي بل كنت أسرق مع  
آخرين حتى أحببت في السرقة محفل رفقاء السوء الذين كنت أسرق معهم • إنني لم أكن  
أحب شيئاً حينذاك أكثر من السرقة وحدها • أفلم يكن إذن لظروف الصداقة المقترن بها وزن  
أو اعتبار ؟؟

لا يقدر أن يدلني عن هذا إلا ذاك الذي يضئ قلبي ويكشف ما بأركانه الظلمة لأستطيع أن  
أفحص ما بعقلي وأحلله و أتأمله إذ إنني لو كنت في ذلك الوقت أحب الكمثري التي  
أسرقها لأتلذذ بها لسرقتها بمفردي ، ولو كنت أسرق بدافع الحاجة لاكتفيت بسرقة ما يكفي  
لإشباع نفسي دون أن أكون في حاجة لأن ألهب شوق رغباتي بشغف رفقاء السوء • ولكن  
الحقيقة أن لذتي لم تكن في الكمثري بل في نفس الضر الذي يسببه محفل رفقائي  
المجرمين.

-17-

أي شعور إذن كان هذا الشعور ؟ إنه بلا شك كان شعوراً معيماً جداً ! فويل لي لأن هذا  
الشعور كان شعوري • أي شعور كان هذا الشعور ؟ من يقدر أن يعرف أثمه وخطاياهم ؟ لقد  
ملا الطرب قلوبنا فخدعنا !! ولو أننا فكرنا قليلاً فيما كنا نفعله لاشمأزت نفوسنا •• لماذا إذن  
كانت لذتي العظيمة في أن لا أسرق وحدي ؟ السبب في ذلك هو ما جرت عليه العادة في  
أن من يضحك لا يضحك وحده •

هكذا جرت العادة ومع ذلك ففي بعض الأحيان يغلب الضحك علي البشر فرادي إذا ما خطر  
علي الشعور أو البال شيء مضحك جداً ومع ذلك فإنني لم أسرق وحدي !! وحدي لم أسرق  
أبدأ وها هي ذي أمامك يا إلهي الصورة الواضحة لنفسى • لم أرتكب أبداً السرقة منفرداً  
وما سرقته لم أتلذذ به ولكنني تلذذت لأنني سرقته • إن السرقة وحدها لم تحبيني في  
ارتكابها ولم أحب أنا وحدي أن ارتكبها •

أه من التواد الذي بلا وداد كهذا !! أنت أيتها الشهوة لا يمكن إدراكك • إنك تغرين النفس  
وتصنعين من المزاح والسرور ضروراً ، إنك ظمأى لهلاك الآخرين دون فائدة ترجي ، أو انتقام  
بيغي ، ولكن عندما كان يقال لنا ( دعنا نذهب ، دعنا نسرق ) فإننا لم نكن نستحي أن نكون  
بلا حياء •

-18-

يا لها من مشاكل ملتوية عسيرة الحل • إنها تعف في طريقي لذلك أكره أن أتأملها أو أفكر  
فيها • إنني مشتاق إليك يا الله أيها البر والطهارة لأنك جميل وظيف لكل العيون الطاهرة ولا  
يمكن أن يشبع أبداً منك •

فيك السلام التام والحياة الدائمة ومن يدخل إليك يدخل إلي فرح سيده بلا خوف ، وبصير  
فاضلاً في الله فائق الكل ••• لقد تذلت بعيداً عنك وتهت وضللت كثيراً - يا عضدي - في تلك  
الأيام، أيام شبابي حتى صرت لنفسى أرضاً جدياً •

### الكتاب الثالث

=====

1- إقامة القديس في قرطجة عندما بلغ السابعة عشرة من عمره وظل فيها حتى التاسعة

عشرة \*

2- مصادر ارتبائاته - :

أولا - حب المناظرات \*

ثانياً - التقدم في الدراسات ومحبة الحكمة 0

ثالثاً - عدم التلذذ بالكتاب المقدس \*

رابعاً - الضلال مع المانويين ودحض بعض عقائدهم \*

3- حزن أمه مونكا علي ضلاله \*

4- صلواتها من أجل هدايته 0

5- الله يوحى لها بهدايته في حديث لها مع أحد الأساقفة \*

-1-

(أوغسطينوس يبحث عن العشق)

في السابعة عشرة من عمري ذهبت إلي قرطجة وقد كانت تدوي في أذني مجموعة من أصوات غرامياتي الدنسة ، ومع أنني لم أكن قد وقعت في شباك الغرام إلا أنني رغبت في أن أعشق حتى كرهت حياتي لأنني لم أجد فيها ما أعشق رغم إنني أبحث عن العشق ... لقد أبغضت أن أهيم بالعشق وأبغضت كل طريق توجد فيه مكائده ، لأنه كانت توجد في نفسي مجاعة إلي ذلك الطعام الروحي الذي هو أنت يا إلهي \* ومع ذلك فإنني لم أطلب هذا الطعام لا لأنه كان لدي منه ما يكفيني بل لأنني لم أكن أشتهي ، لم أكن أشتهي ذلك القوت الذي لا يفني بل اشتهيت كل ما كان باطلاً لأن نفسي كانت عليه وغارقة في أحزان كثيرة \*

لقد ابتعدت نفسي التعيسة بعيداً عنك يا إلهي ! لقد ضلت في هوي حواسها ، تلك الحواس التي كانت بلا روح ... ! إن لذاتي كانت في أن أعشق وأعشق ، وكانت هذه اللذة تزداد كلما كنت أخضع نفسي لشهوات الجسد ودنست أصل الصداقة وبهاؤها بنجاسة الشهوة وسعيرها ... وهكذا كنت أنا التعيس القبيح أفرح نفسي بلا لياقة لأكون محتالاً ولأكون أديباً في الزهو الفائق حتى لقد سقطت بنزق في شرك الهوى الذي اشتهيت أن أقع فيه وبلغت أقصى ما كنت أمناه من متعة جسدية \* ولكنك يا إلهي يا رحمتي قد مزجت هذه المتعة بمرارة لطفك ، وأوثقتني بأربطة الحزن ، فتمنيت أن أجد بسياط ملتته من الحديد لتحترق أعصاب الحسد والشكوك والمخاوف والسخط والمنازعات \*

-2-

(الأحزان التي تسببها التمثيليات المسرحية)

كم من أفكار مجزنة كانت تجيش بنفسي بسبب تلك التمثيليات التي كنت أشاهدها علي المسرح ، تلك التمثيليات التي سلبتني شقاوتي ، وخففت من وقيد ناجحي \* يرغب الإنسان في بعض الأحيان أن يبدو كنيباً شاعلاً عقله بتلك الأفكار السوداء التي تؤلم نفسه وتثيرها فيها مشاهدة هذه الروايات المجزنة حتى تكون لذته في الحزن الذي ينجم عن المشاهدة \* لماذا كل هذا ؟ أليس هذا نزق وضع لأنه كلما ازداد الإنسان تأثراً بما هو محزن فقلما يستطيع أن يحرر نفسه من العواطف الحزينة ، وكلما تألم في نفسه فإن نفسه تستعذب التعاسة والألم ، وكلما أشفق علي آخرين فإنه يصبح رحيماً !! ولكن أي حزن وأي شفقة تسببها تلك الآلام المسرحية المملقة ؟؟

\*\*\*

إن الإنسان عندما يدعي لمشاهدة تلك الروايات ، لا يذهب إليها ليروح عن نفسه بها ولكن لقبضها \* وكلما زيد في مدح ممثلي تلك الخزعبلات كلما ازداد انقباضها وإذا كانت مصائب أشخاص الرواية - سواء أكانوا خياليين أم حقيقيين - لا تهيج الدمع في مقلتيه ، فإنه ينطلق بعد مشاهدتها ، صجراً مندداً بها \*

-3-

ولكن أهكذا يجب الإنسان تلك الأحزان ؟ الواقع أن الجميع يحبون الأفراح ولا يوجد إنسان يرغب في أن يكون تعيساً ، بل كل إنسان يرغب أن يكون مسروراً ومع ذلك فإنه يجب أيضاً أن يكون رحيماً \* ولما كان لا يمكن أن يثير الرحمة في قلب الإنسان سوي ألام أخيه الإنسان لهذا فإن الإنسان يجب هذه الآلام ، التي تثير الرحمة في قلبه \*

ولكن هذه الرحمة التي تثيرها الآلام المملقة أيمن أن تكون قد نبعت من شريان الصداقة الحق ؟ لا يمكن هذا لأن منبع هذه الرحمة هو المجاري غير الطبيعية للشهوة الدنسة التي

تغير الصداقة وتدنس بهاءها الفائق فتجعل الإنسان يحب مشاهدة آلام الغير وأحزانهم لأنها تثير الحزن في نفسه \*\*\* أحذري يا نفسي الدنس لأنك تحت حراسة إلهك ، إله آبائنا ، الذي به يليق التسبيح والتعظيم إلي الأبد فوق كل شيء • لذلك فاحذري الدنس •

\* \* \*

إنني إلي الآن لا أكف عن الرثاء من أجل ذلك الوقت الذي كنت أبتهج فيه مع العشاق الذين يمثلون فوق المسارح عندما كنت أراهم فرحين باجتماع شملهم حتى إذا افترقوا وأضناهم الفراق وأحزنهم ، حزنت أنا أيضاً معهم ، لقد كنت أتلذذ بالفرح والحزن علي حد سواء ، مع أن هذا كله تمثيل وهراء في هراء \*\*\* إنني الآن لا أحزن علي الإنسان الذي يظن أنه يتألم لفقده لذة قصيرة أو مسرة صغيرة قدر حزني علي ذلك الإنسان الذي يفرح بفقوره ، وحزني هذا ليس مصدره الحزن ولكن مصدره الرحمة الحقيقية •

إن الإنسان الذي يحزن مع الحزاني يمدح علي عمله باعتباره رحمة !! ومع ذلك فإن هذا الإنسان لا يعد رحيماً حقاً إلا إذا كان حزبه من أجل أحزان الغير صادقة وبنية خالصة • الأمر الذي لا يكون عندما يتمني أن يوجد الحزن كي يحزن من أجله \*\*\* أنت وحدك أيها الرب الإله هو الذي يحب الأرواح أكثر من حينا لها ، وترحمها رحمة دائمة لأنك تحبها حباً طاهراً ، إلا أنها مع ذلك تجلب لنفسها الأحزان ( ومن هو كفاء لهذه الأمور ) •

-4-

لقد كانت نفسي - أنا التعيس - تبحث في ذلك الوقت عما يحزنها ، وتحب أن تكتئب من أجل كآبة غيرها ، تلك الكآبة التي تلفق تلفيقاً وتمثل تمثيلاً بسيل الدمع من العين إلي أكبر حد • فمثل هذا التمثيل هو التمثيل الذي كنت أشتاق إليه كثيراً • لذلك فلا عجب أن يضل ذلك الحمل - الذي هو أنا - من قطيعك ويجزع من حراستك ويمرض بأمراض قبيحة • لقد أفسدته محبة الأحزان، وسيطرت علي نفسه الرغبة في مشاهدة الآلام ، حتى أنه عندما كان يسمع هذه الخزعبلات التي تنشب مخالفاً المسممة في وجهه ، كانت نفسه تنتفخ انتفاخاً وتلتهب التهاباً حتى يصبح كقرحة عفنة • فهل كانت مثل هذه الحياة معتبرة حياة يا إلهي ؟؟

-5-

ومع ذلك فإن رحمتك الصادقة قد ررفت علي من بعيد \*\*\* لقد أفنيت نفسي في خطايا أليمة ، لقد نبذت وانتهكت حرمة مقدساتك و أشبهت المشرفين علي هاوية الموت ، وعبادة الشياطين الخادعين التي قدمت سيناتي ذبيحة لهم !! ومع ذلك كله فإنك لم تنسني ، بل عافيتني •

بينما كان أبناؤك يحتفلون بخدمة الأسرار المقدسة داخل كنيستك تجاسرت وعملت عملاً استوجب قصاص الموت من أجل نتائجه \*\*\* ولكنك لم تميئني بل عافيتني بعقوبات صارمة • ولكن تهون بجوار خطيئتي • إنك رحمتي الفائقة يا إلهي \*\*\* إنك منقدي من كل تلك الممالك الفظيعة ، التي كنت فيها هائماً برقبة غليظة ، ومبتعداً بعيداً عنك ، عاشقاً طرفي لا طرفك ، عاشقاً حربة زائفة 0

-6-

اشتغاله ناظراً لمدرسة البيان

إن البشر الأغبياء لم يكن لديهم من الدراسات ما يستوجب المدح والثناء سوى تلك الدراسات التي قصد بها التفوق في ميادين المجادلات ، حيث يكون أكثرهم خبناً هو أكثرهم مدحاً • إنهم لغباونهم يفتخرون بجهالاتهم \*\*\* لقد كنت في ذلك الوقت ناظراً لمدرسة البيان فانفخت أوداجي وكنيت أتبه عجباً • ومع أنني كنت بعيداً عن تخريبات المخربين { لقد كانت خطينة التخريب دليل الشجاعة في ذلك الوقت { الذين كنت أعيش بينهم إلا أنني لم أكن مثلهم ، ملطخاً بالعار بلا حجل •

لقد كنت أعيش بين هؤلاء مسروراً بصدافتهم ، ولم أبغض أبداً أعمالهم أو تخريباتهم عندما كانوا يمزحون بالاعتداء علي عفة الغرباء ، مشبعين رغبات الشر الكائنة في نفوسهم ، بأعمال ليس هناك ما يشابهها سوى أعمال الشياطين أنفسهم ، فهل هناك لفظ يستحق هؤلاء أن نطلقه عليهم سوى لفظ ( المخربين ) لأنهم كثيراً ما خربوا ، لقد كانت أرواح الظلمة تسخر بهم في الخفاء وتصللهم ، وكانوا يبنهجون بأن يسخروا من الآخرين ويخدعوههم .

-7-

ما سببته دراسته للفلسفة

في وسط تلك الأمور وفي ذلك السن المضطرب ، حفظت كتب البلاغة ، وتمنيت أن أكون مشهوراً في عرض غير مجيد ومرذول، في الفرغ بأباطيل البشر • وفي أثناء فترة الدراسة السنوية هاجمت كتاباً لسيكيرو الذي كان كل حديثه - تقريباً - حكماً • هكذا كان حديثه وأما قلبه فلم يكن كذلك •

لقد كان هذا الكتاب يحوى أسرار الفلسفة وكان يدعي ( هورتنسنس ) • هذا الكتاب غير أميالي • وأعاد صلواتي إليك يا إلهي ، وجعلني أمل في أمال أخرى • لقد صارت الآمال

الباطلة خسيصة أمامي • واشتهيت برغبة لا تُصدق أن تدوم لي الحكمة • فابتدأت أن أستيقظ لعلّي أرجع إليك ، لقد استخدمت هذا الكتاب انتفعت بموضوعه دون أسلوبه ، حيث كنت في سن التاسعة عشرة من عمري وكان أبي قد مات منذ سنتين •  
-8-

في ذلك الوقت التهيت نفسي بالرغبة في أن أرتقي إليك وأن ارتفع فوق هذه الأشياء الأرضية دون أن أعلم ما أردت أنت أن تفعله بي • إن معك الحكمة ، ومحبة الحكمة تدعي باليونانية ( فلسفة ) وتلك هي التي أضرمني بها ذلك الكتاب ••• ومع هذا توجد في الحكمة أشياء مزللة مخيفة تحت أسماء شريفة وعظيمة وهادئة لتجذب ما فيها من أخطاء • حتى إن كل الذين عاشوا في تلك الأحقاب وما قبلها لم يجدوا ما يخفون به أخطاءهم سوى ستار الفلسفة وإن كانت الفلسفة في ذلك الكتاب ملومة لوماً واضحاً •• في ذلك الكتاب قد فسرت تلك النصيحة الشافية التي لروحك بواسطة خادمك الصالح والتقّي الذي قال ( انظروا أن لا يسيبكم أحد بالفلسفة وبغورور باطل حسب المسيح الذي فيه يحل كل ملء اللاهوت حسدياً ) •

وأنت يا ضياء قلبي تعلم أن رسائل الكتاب المقدس لم تكن في ذلك الوقت معروفة لدي فابتهجت بذلك واستيقظت بقوة عزم كي أحب وأجتهد وأتحصل وأملك دون أن أقبل هذا المذهب أو ذاك بل قبلت الحكمة نفسها مهما كانت •• ولما كانت الحكمة خالية من اسم المسيح فقد حملني هذا علي أن أقف أمامها مضطرباً • لأن هذا الاسم - تبعاً لرحمتك يا رب - هو للمخلص ابنك - ملك قلبي الحنون ، الذي امتصصته بورع مع لبن أمي الذي كنزته لي بكثرة فائقة فلم أقبل مطلقاً كل ما كان بدون ذلك الاسم مع أنه لم يكن أبداً حادثاً أو ظاهراً أو حقيقياً •  
-9-

في ذلك الوقت عزمت علي مطالعة الكتب المقدسة لعلّي أستطيع أن أدرك كنهها ولكني لم أستطع أن أفهمها لأن ما فيها لم يكن يتفق مع طبائع المتكبرين أو حديثي العهد بالإيمان ، لقد كانت معانيها سامية ، ومنطوية علي أسرار خفية لم أقدر أن أصل إليها أو أحني هامتي لأتبع خطواتها •

عندما بدأت في مطالعة الكتب المقدسة لم أكن كما أنا الآن حتى لقد كانت تبدو أمامي أنها غير جديرة بأن تقارن بمفاخر ( توللي ) ، إن وداعتها لا تليق بانتفاخ كبريائي وتواضعها المتزايد كان أسمي من أن يتغلغل فيه ذكائي الذي كان خارقاً • لقد كنت أحتقر أن أكون متواضعاً لأني وقد كنت منتفخاً بالكبرياء قد أردت أن أجعل نفسي عظيماً  
-10-

#### انحرافه وراء الأباطيل

لذلك لم يكن عجيباً أن أقع بين أناس أولعوا بالكبرياء ، وانصرفوا إلي إرضاء شهواتهم ومهذارين ، حتى لقد كانت تبدو في أفواههم مكائد إبليس مسربلة بخليط من مقاطع اسمك واسم يسوع المسيح ربنا واسم الروح القدس معزينا ••• إن أفواههم لم تكف عن ترديد هذه الأسماء ولكن قلوبهم كانت خالية من الحق وبصيحون ( الحق • الحق ) دون أن يكون الحق فيهم ، بل كانوا يتكلمون كذباً عنه ، عنك أنت أيها الحق كما كانوا يتكلمون كذباً عن عناصر العالم التي هي خلائتك •

كان يجب عليّ أيضاً أن أجتاز بالفلاسفة الذين تحدثوا بالصدق عن خلائتك ، محبة فيك يا أبي يا فائق الصلاح ، وجمال كل الأشياء الجميلة ، أنت أيها الحق • حتى لقد لهث جوهر روحي كثيراً في باطني سعياً وراء معرفتك ، عندما تكلموا عنك كثيراً في أذني بأشكال مختلفة ولكن ما كانوا يرددونه عنك في أحاديثهم أو كتاباتهم الكثيرة لم تكن إلا صدي الحق •  
\* \* \*

هذه هي الأطباق التي كانت تقدم إلي أنا الجائع إليك ، أما هم فبدلاً من أن يعبدوك قد عبدوا الشمس والقمر وأعمالك الجميلة ولم يعبدوك أنت صانع هذه الأعمال • إن أعمالك الروحية كانت قبل أعمالك المادية ولكني لم أجد ولم أعطش حتى إلي أعمالك الروحية ولو كانت سمائية ومضيئة ، لأن شوقي كان متجهاً إليك وحدك أنت أيها الحق الذي لا يمكن أن يعتريه تغيير ولا ظل دوران ••• كم كانت تبدو أعمالك الروحية متلألئة أمامي في تلك الأطباق التي كانت تقدم لي ، لقد كانت عبادتها برغم ما فيها من ضلال أفضل عندي من عبادة الشمس لأنني ظننت أنك هو أعمالك الروحية لذلك تغذيت بها دون أن أكون راغباً فيها ، لأنك لم تكن تلك الأباطيل التي لم أشبع بها ولم أثبت أن لغظتها ونبتتها •

لقد كان مثلي في هذا الشأن مثل الجوعان الذي يحلم بأنه يأكل الطعام ، فمع أن الطعام الذي يراه في النوم يشبه الطعام الذي يراه في اليقظة ، إلا أن الجائع لا يشبع بما يحلم أنه يأكله أثناء النوم ، كذلك لم أشبع بتلك الأباطيل لأنها كانت شيئاً آخر خلافاً كما أدركتك بعد هدايتي •• تكلم الآن معي يا رب •• إن تلك الأباطيل كانت مجرد أجسام خيالية اشتهاها جسدي الذي لم يشته تلك الأجسام المادية - سمائية كانت أو أرضية - التي كنا نراها بأعيننا، والتي لم يكن هناك شك في وجودها ، لأننا نحس بها كما نحس بها الحيوانات والطيور ، ولا جدال في أن الإيمان بما هو موجود أفضل من الإيمان بما ليس له وجود حتى

ولو تخيلناه جسماً عظيماً لا حد له ولا نهاية •  
لقد كانت تلك العشور التي تغذيت بها في ذلك الوقت عديمة القيمة ، لذلك لم أشبع ، ولكن  
عندما فنتشت عنك يا حبيب قلبي وجدت فيك شيئاً ورياً •• أنت شيء آخر غير تلك الأجسام  
المادية التي نبصرها في كبد السماء ، ما ظهر منها وما أستتر لأنك خالقها جميعاً دون أن  
تفضلها بشيء عن سائر مخلوقاتك •• إنك فوق كل ما يمكنني أن أتصوره عن تلك الأجسام  
المادية التي كنت أسبح بخيالي فيها دون أن يكون لما تخيلته عنها ظل من الحقيقة لأن هذه  
الأشياء لم تكن سوى أجساماً جامدة ، ولا يمكن أن تكون أنت هي كما لا يمكن أن تكون  
الروح التي هي حياتها ، لأن حياة تلك الأجسام وإن كانت أعظم من الأجسام ذاتها ، إلا أنك  
لم تكن أنت هي لأنك لست حياة الأجساد بل حياة الأرواح وحياة الأحياء التي حياتها فيك يا  
من لا تتغير يا حياة نفسي •

-11-

أين كنت مني في ذلك الوقت؟! وعلي أي بعد كنت؟!  
لقد كنت تائهاً بعيداً جداً عنك وكنت محروماً حتى من الخروب الذي تغتات به الخنازير التي  
كنت أطعمها ••• لأنه حتى خرافات الشعراء وعلماء اللغة كانت أفضل من تلك الأشراك التي  
وقعت فيها • أحل إن دراسة النظم والشعر ••• وميديا الطائر هي أنفع بلا شك من دراسة  
عناصر البشر الخمسة المستترة تحت أقنعة مختلفة ، مناسبة للكهوف الخمسة المظلمة  
التي لا وجود لهل ومع ذلك تهلك من يعتقد بها !! { لا نعرف ما يقصده المؤلف بخمسة عناصر  
البشر المستترة تحت أقنعة مختلفة للكهوف الخمسة المظلمة ، ويظهر أنها إحدى الأساطير  
المعروفة في ذلك الوقت. } ••• إن الإنسان عندما يدرس النظم والشعر قد يجد فيه غذاء  
نفسياً حقيقياً ، بالرغم من عدم إيمانه بوجود الكائنات ، موضوع هذه الأشعار كميديا الطائر  
وغيرها التي يتغنى بها أو قد يستمع إلي إنشادها ••• يعكس عناصر البشر الخمسة التي  
كنا نؤمن بوجودها دون أن يكون لها في الحقيقة ظل من الوجود 0

\*\*\*

ويل لي •• ثم ويل •• إلي أي درجات الهاوية كنت مساقاً •• وكمت تعبت وتلفت سعيماً وراء  
الوصول إلي الحق •• وأخيراً حصلت عليك يا إلهي • إنني أعترف بذلك أمامك يا من رحمتني  
•• ولم أكن من قبل معترفاً كما أنا الآن ••• إنني أعترف بسعي في سبيل الوصول إليك  
دون أن أهتدي في ذلك بعقلي البشري الذي جعلني أعتقد بأنني أسمي من الحيوانات ،  
ولكن الذي هداني هو روحك الذي كان في داخلي مستتراً أكثر من كل ما هو مستتر جداً  
وأعلي من كل ما هو عال •

\*\*\*

وقبل ذلك كنت أسير مندفعاً وراء شهوات جسدي ، فصادفتني تلك المرأة الشريرة • ولما  
كنت جاهلاً وغيباً ، فإنني لم أدرك أنها تلك المرأة التي عنها سليمان بقوله ( إنها جالسة  
عند الباب تقول كل خبز الخفاء طوعاً وأشرب المياه المسروقة فهي حلوة ) لقد أغوتني تلك  
المرأة لأنها أدركت من عيني أنهما زانغتان وأن نفسي تشتهي طعاماً كهذا الطعام الذي كنت  
أتلذذ به 0

-12-

بعض مشاكل الكتاب المقدس التي اعترضته  
هنالك شيء آخر قد صنعتته ولم أكن أدري أكان صواباً أم خطأ ••! لقد كنت في حدة الذكاء  
وكنت في خطر الوقوع في أحابيل المضللين الأغبياء عندما سألوني:

1- من أين أتى البشر؟

2- هل الله - سبحانه وتعالى - جسم محدود وله شعر وأظافر؟

3- كيف يمكن أن يكون باراً ذلك الذي يتزوج عدة نساء في وقت واحد معاً؟ وكيف يمكن أن  
يكون باراً ذلك الذي يقتل النفس التي حرم الله قتلها أو يقتل نفسها حية ليقدّمها ذبيحة لله؟؟  
لقد أزعجتني هذه المشاكل لجهلي ورغم أنني كنت بعيداً عن الحق فقد سعيت إلي معرفة  
هذه الأشياء وكل ما استطعت أن أعرفه عن الشر والخير في ذلك الوقت لم يكن سوى أن  
الشر هو عدم الخير وأنه سوف يأتي ما يبطل الشر والخير فلا يكون لهما وجود • كذلك كنت  
أظن في ذلك الوقت أن الله جيماً وأن هذا الجسم قد أمتد فقط إلي الأجسام كما أمتد من  
عقلي إلي خيالي ولم أكن أعلم أن الله روح وليس جسماً له أطراف ممتدة طولاً وعرضاً  
بشكل جسيم ••• ذلك إن كل قطعة في الجزء هي أصغر من كل قطعة في الكل ، فإذا كان  
الله غير محدود فإنه إذا وجد في مكان محدود فإن الجزء الموجود في المكان المحدود يكون  
أصغر من الجزء الموجود في المكان غير المحدود ولا يمكن أن يقال هذا القول بالنسبة للروح  
القدس أو الله الأب!! ••• ونحن ماذا وجد فينا مشابهاً لله حتى يصدق القول الإلهي ( ليكون  
الإنسان علي صورة الله ) • لقد كنت في ذلك الوقت أجهل كل هذا 0

-13-

إنني لم أكن أعلم أن الخير هو في البر الذي لا يقاس بمقياس عادات الناس بل يقاس  
حسب الناموس الذي لا حد لكماله الذي لله القادر علي كل شيء • وأن هذا الناموس الذي  
وضعه الله وإن كان واحداً إلا أنه كان يختلف باختلاف الأماكن والأزمنة لأن عبارة (أثناء ذلك )

إن كان لها نفس المعني الذي لعبارة ( في كل حين ) إلا أن عبارة ( في كل مكان ) ليس لها نفس المعني الذي لعبارة ( شئ واحد في مكان واحد وشئ آخر في مكان آخر ) . . . فتبعاً للناموس الذي وضعه الله كان إبراهيم وأسحق ويعقوب وموسى وداود أبراراً لأن الله مدحهم بغمه وإن كان البشر الأغبياء قد حكموا عليهم بأنهم أشرار فذلك لأنهم حكموا حسب ناموس البشر، وقرنوا عاداتهم الحقيمة بالعادات الصالحة للجنس البشري بأكمله. مثلهم في هذا مثل إنسان لا دراية له باستعمال الأسلحة فمثل هذا الإنسان إذا دخل مخزن أسلحة فإنه قد يغطي رأسه بأذرع وقاية الساقين أو يتعل في قدميه الخوذة التي يغطي بها الرأس ثم يشكو بعد هذا أن تلك الأسلحة غير صالحة للاستعمال . أو مثل إنسان يفتح خانوته بعد ظهر أحد الأيام التي يجب أن تقف فيها جميع الأعمال بعد الظهر حتى إذا أمره بغلاق محله استشاط غضباً لأنه لم يُسمح له بالاستمرار في فتح خانوته الذي كان مفتوحاً من قبل . أو مثل إنسان غريب لم يأذن له أمين أدوات الموائد والمشروبات بأن يتدخل إذا وجد الخدم يتداولون استعمالها فيغضب هذا الإنسان إذا رأى أحدهم قد حمل بعض هذه الأدوات خارج المنزل أو خارج غرفة الأكل بحجة أنه ما كلن يصح أن تنقل الأدوات الخاصة بأحد المنازل أو إحدى الأسرات إلي غيرها .

هذه هي حالة من بغضبون عندما يسمعون أن أناساً أبراراً عملوا أعمالاً كانت محلله في أيامهم وقد أصبحت الآن محرمة أو بغضب لأن الله لأجل اعتبارات زمنية أمر بعض الناس بأمر مخالف لما أمر به غيرهم مع أن كلا الأمرين خاضع لبر واحد .

لقد كان يكفي لإقناع هؤلاء المعارضين أنهم يشاهدون دائماً اختلاف الأشياء في الإنسان الواحد وفي اليوم الواحد وفي البيت الواحد وما في هذا الاختلاف من تناسب مع الأشياء المختلفة . فإذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن لا يباح اليوم ما كان مباحاً بالأمس ولا عجب أن الشيء الذي كان مسموحاً ومأموراً به في زمان ما قد أصبح ممنوعاً ومحرماً في زمن آخر فإذا عمله إنسان عوقب عليه . . . أي يمكن أن يقال بعد هذا أن العدل متقلب أو متغير ؟ كلا ولكن الأزمنة التي تسود عليه هي المتغيرة . ولأن البشر فصار الأعمار والأفكار لا يقدر أن يوفقوا بين أسباب الحوادث التي وقعت في أحيال سابقة مع شعوب آخرين ، كما لا يقدر أن يدركوا بسهولة ما هو مناسب لكل عضو وجزء وفرد وشخص لعدم إلمامهم بهذه الأسباب أو تلك البواعث بالنسبة للشخص الواحد وفي نفس الجسم الواحد أو الأسرة الواحدة أو اليوم الواحد ومع ذلك فهم يعترضون علي هذا ويسلمون بذلك .

-14-

في تلك الأوقات لم أكن أعلم كل هذا ولم ألاحظه لأنني كنت أحارب وحدي في جميع المبادئ ، لقد نظمت قصائد مختلفة من الشعر ، ولكنني لم أستطع أن أضع وزناً شعرياً واحداً لها جميعاً ، لأن القصائد كانت مختلفة في أوزان مختلفة ولم يكن لها وزن واحد ، وذلك بخلاف كتبك المقدسة التي صيغت بمهارة فائقة حتى إنه بالرغم من احتوائها علي حالات مختلفة ، فإن أساسها ليس مختلفاً ، لأنها جمعت كل هذه الحالات في وزن واحد حتى إنني إلي الآن لست أفهم كيف يمكن أن يكون البر الذي أطاعه بشر صالحون وقديسون قد تضمن في أمر واحد كل هذه الأشياء التي أمر بها الله دون أن يكون هناك أي اختلاف في أي جزء من أجزاء هذا الأمر ، بالرغم من أن التشريعات التي صدرت في الأزمنة المختلفة لم تصدر في مجموعة واحدة ولكنها صدرت علي دفعات متعددة إذ كان يؤمر في كل زمن من الأزمان بما يلائمه ولأنني كنت أجهل هذا فإنني قد لمت الآباء القديسين لا لأنهم استفادوا بأوامر الله أو بما أوحى إليهم به ولكن لأنهم تنبأوا بأوامر مستقبله كان الله قد أوحى لهم بها0

-15-

ولكن . . . يمكن من الظلم في أي زمان وأي مكان أن ( تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك وتحب قريبك كنفسك ) كلا بالطبع ولذلك كانت تلك الخطايا البشعة التي هي ضد طبيعة البشر كخطايا رجال سدوم مكروهة ومبغوضة حتى إن العقاب واجب لكل من يرتكبها في كل زمان وكل أمة كناموس الله الذي لم يأمر البشر بأن يهتكوا بعضهم بعضاً .

ليس ذلك فحسب ، بل إن تلك الصلة التي يجب أن تقوم بيننا وبين الله لا يوجد ما يقطعها قدر تدنيسنا تلك الطبيعة بزيفان الشهوة ، لأن تلك الطبيعة قد أبدعها الله فينا وتلك الأنام التي تدنيسها هي ضد طباع الرجل حتى إن شرائع البشر تقاومها وتعمل علي استئصالها ولو باستعمال العنف مع من يرتكبها . وتأسيساً علي هذا فإن كل ما هو متفق عليه طبعاً للعرف الجاري أو الشرائع السائدة عي أية مدينة أو أمة لا يمكن التحلل منه لمجرد لذة غير مباحة لأي إنسان سواء أكان وطنياً أم أجنبياً لأن كل ما لا يتفق مع العرف أو الشريعة فإنه يزعج المجموع0

أما الله فإنه عندما يأمر بأي عمل فإن هذا العمل يجب أن ينفذ، حتى ولو كان هذا العمل ضد عوائد الناس ، أو ضد الاتفاقات التي عقدها مع أي شعب من الشعوب حتى ولو لم يكن قد سبق عمله أو سبق فرضه أو كان قد سبق فرضه ثم أوقف تنفيذه ، فهذا العمل يجب أن ينفذ من جديد وأن يعتبر مفروضاً من وقت صدور الأمر به لأنه إذا كان من المقرر أن لكل ملك في مملكة أن يأمر بما لم يأمر به أحد أو بما لم يأمر هو به من قبل ومع ذلك تكون طاعة هذا الأمر

واجبة تحقيقاً للأمن والسلام اللذين لا يسودان إلا بطاعة أوامر الحكام ، لأن طاعة الحكام هي الميثاق العام للهيئة الاجتماعية فمن باب أولى تكون طاعة أوامر الله واجبة علينا ، لأن الله هو المتسلط وحده علي كل الكائنات ، وكما أنه في سيادات البشر تكون السلطة الأعظم سيادة واجبة الطاعة والتفضيل علي ما هو دونها فكذلك يجب أن يطاع الله ويفضل علي كل شئ لأنه فوق الجميع •

-16-

لا يلجأ الإنسان إلي العنف إلا عندما تثور في نفسه الرغبة في الإيذاء والإضرار بالغير لذلك فهو يلجأ إلي القتل أو التخريب ••• كذلك قد يدفع حب الانتقام الإنسان إلي استعمال العنف مع عدوه كما قد مدفعه إلي ذلك رغبته في الحصول علي فائدة من إنسان آخر كما يحدث من اللص مع المسافرين • بل إن أعمال العنف قد تُرتكب لشر يخشى وقوعه كما يحدث من الإنسان الخائف ، أو لمجرد الحسد كما يحدث من الحسود عندما يجد غيره أكثر سعادة منه • ليس ذلك فقط بل إن أعمال العنف قد تُرتكب لمجرد بعث السرور في نفوس الغير كما يفعل مصارعو السيوف أو الذين يسخرون بغيرهم ويعيرونهم ••• إن من يعملون هذه الأعمال هم الزعماء الذين تأصل في نفوسهم الشر نتيجة لشهوة الجسد أو شهوة العين أو شهوة حب الرئاسة ، سواء أكانوا فرداً أم جماعة، متفرقين أم متحدين • وهكذا يعيش البشر سقماً لعدم إصغائهم للثلاثة والسبعة التي تكون القيثارة ذي العشرة أوتار التي هي وصاياك يا الله يا من كلك حلاوة وأعلام من كل ما هو عال •

\*\*\*

ولكن أيمكن أن يلحقك شئ من هذه القبائح يا من لا يمكن لأحد أن يدنسك ؟ وهل توجد هنالك أعمال عنيفة يمكن أن تضرك يا من لا يمكن لأحد أن يضرك ؟ وإذا كان لا يوجد هنالك شئ من هذا ، فلماذا إذن تنتقم من البشر عندما يخطئون ؟ ••• إنك تنتقم من البشر لأنهم يرتكبون ما يضرهم ، ناظراً إلي أنهم عندما يخطئون إليك إنما يخطئون أيضاً ضد أنفسهم ، وهم بإفراطهم في استعمال أشياء مباحة أو ليست مباحة كتلك العادة التي هي ضد الطبيعة ، إنما يسيئون إلي أنفسهم ، لأن هذا الشر يفسد طباعهم التي خلقتها أبداعها • كذلك عندما يكفر الناس بالسنتهم وقلوبهم بك ، رافسين المناخس وكاسرين وتد الهيئة الاجتماعية ، بسعيهم في إثارة الفتنة طمعاً في فائدة يربحونها ، أو ضرر يسيئون به إلي الغير إنما يسيئون إلي أنفسهم بعملهم هذا ، وفي الوقت نفسه يعتدون عليك يا مصدر الحياة ، لأنك أنت وحدك الخالق الوحيد وأنت وحدك الإله حاكم المسكونة ••• لذلك يجب علينا أن نصلي بكل تدلل لنرجع إليك ، لتطهرنا من خطايا عاداتنا الشريرة لأنك رحوم وتغفر خطايا الذين يعترفون لك وتسمع أنين الأسير وتحلم من قيوده التي يقيد بها نفسه ، إن كان لا يصادك ولا يرفع أعلام الحرية الباطلة ، فيخسر كل شئ عندما ينتهي ما لغيره ، ويجب خيره الخاص أكثر من حبك يا خير الجميع •

-17-

زيادة علي آثام القباحة والعنف والمظالم يوجد هناك آثام أخرى يعملها الناس جملة بمهارة ويذمها أولئك الذين يحكمون بعدل حسب ناموس الكمال • ومع ذلك فإن الناس عندما يرتكبون هذه الآثام يمدحون باعتبار ما سوف يعملونه مستقبلاً من خير ، شأنهم في هذا شأن من يرحو القمح من السنبله إذا نمت واخضرت ••• كذلك توجد أعمال أخرى تشبه أعمال العنف ، ومع ذلك فإنك لا تعتبرها خطايا ، لأنها لا تعيظك أبها الرب إلها ، ولا تضر الهيئة الاجتماعية ، ومن هذه الأعمال اقتناء الأشياء والأموال وإدخالها لمستقبل الأيام ، لاستخدامها في شئون الحياة • كذلك من بين تلك الأعمال العقوبات ، التي توقعها السلطة الزمنية بالمجرمين ، لتقومهم لا لضررهم

إذن توجد هناك ثمة أعمال يذمها البشر وتمدحها شهادتك يا رب ، كما توجد أعمال كثيرة يمدحها البشر وأنت تشهد بأنها مذمومة ، لأن غرض العمل ورأي من يعمله واختلاف الأزمنة المجهولة كلها تتناقض مع بعضها • لذلك فلا عجب إذا ما أمرت الناس بأمر شاذ أو غير مألوف لأنك سبق أن نهيت عنه في وقت من الأوقات دون أن تبين سبباً لهذا الأمر الذي قد يكون ضد شرائع فريق من البشر ولا عجب إذا ما خالف الناس هذا الأمر وامتنعوا عن تنفيذه مبررين مخالفتهم له بأنهم لا يريدون مخالفة شريعتك السابقة لأنهم متفانون في عبادتك • يا رب إن الذين يعرفون وصاياك هم السعداء ، وكل ما يعمله خدامك إنما يعملونه ليظهروا علانية ما هو ضروري وحدير بالاتباع في الوقت الذي يعيشون فيه والأزمنة المستقبلية التي يتنبأون عنها •

-18-

ولكوني كنت جاهلاً بهذه الأمور ، فقد هزأت بأبنائك وخدامك القديسين ، ولكني لم أرحم من وراء هذا سوي ازدراؤك بي 000 لقد كنت مدفوعاً إلي تلك الجهالات تدريجياً ورويداً ورويداً ، حتى لقد كنت أعقد أنني إذا قطعت شجرة التين فإنها تبكي عند قطعها ، وأنه إذا فصل غصن عنها فإنها تريق من أجله دموعاً لبنية وتظل حزينة منتحبة حتى يأتي قديس مانوي وبأكل منها ويمزجها بأحشائه فعندئذ تجف دموعها ويخف جزنها إذ أن القديس المانوي عندما أكل منها قد حلل ذرات اللاهوت الموجودة فيها ، في كل تأوه أو أنين يصدر منه في صلاته )



لقد كانت العقيدة أن ذرات اللاهوت محجوزة في شجرة التين حتى يعتقها منها أسنان أو  
خوف قديس مانوي مختار ) \*  
لقد اعتقدت أنا النعيس أن الرحمة واجبة لثمار الأرض أكثر من وجوبها للبشر الذين خلقت من  
أجلهم هذه الثمار ، فإذا وجد إنسان - غير مانوي - جائع والتمس تينة ليأكلها فإني كنت  
أسفق علي تلك التينة التي كانت تظهر في عيني كأنها محكوم عليها بالموت \*  
-19-

الله يوحى إلي أمه في رؤيا بهديته  
أما أنت يا رب فقد أرسلت لي معونتك من الأعالي وخلصت نفسي من تلك الهاوية العميقة  
لأن أمي المؤمنة بك كانت تبكي إليك من أحلي ، وكان بكأؤها يفوق بكاء الأم الثكلى علي  
فقد وحيدها \* \* \* لقد كانت أمي مؤمنة بك وممثلة من روحك القدوس ، فأدركت خطر الموت  
الذي كنت متمسكاً به ، وأنت يا رب قد استجيت لها ، ولم تهزأ بدموعها ، لأنها عندما كانت  
تصلي كانت تروي بدموعها أرض المكان الذي تصلي فيه \*  
لقد استجيت لها يا رب ، وأريتها تلك الرؤيا التي عزيزتها بها ، وعندما تعزت سمحت لي بأن  
أعيش معها ، وأكل علي مائدتها في ذلك المنزل الذي كانت قد بدأت في كراهيته كارهة  
معه تحديفي وضلالي \* \* \* لقد كانت رؤيا أمي أنها وجدت نفسها جالسة علي قاعدة خشبية  
ثابتة فلم يلبث أن ظهر أمامها شاب مشرق بهيج بيتسم لها آخذاً في الاقتراب منها \*  
لقد كانت نفسها مكتئبة غارقة في الأحزان ، حتى إذا ما سألتها إنسان عن سبب حزنها  
ودموعها التي لا تنقطع ، كانت تجيب أنها تنذب هلاكي ، أما هم فكانوا يعزونها ويقولون لها -  
وهم في غاية السرور - بأن تتأمل جيداً في رؤياها وكيف أنني كنت في المكان الذي هي  
كانت فيه ، وكيف أنها عندما تطلعت إلي وحدثني واقفاً بجوارها ، في نفس النظام الذي  
كانت تقف فيه \* \* \* من أين كانت لأمي هذه التعزيات إلا منك ، لأن أذنك مالنا إلي قلبها  
حقاً ، لأنك صالح جداً وقادر علي كل شيء ، يا من تعتني بكل واحد منا كما لم يكن لك أحد  
آخر تعتني به غيره ، وتعتني بنا جميعاً كما لو كنا فرداً واحداً فقط \*  
-20-

لقد أخبرتني أمي برؤياها فقلت لها ( إن تلك الرؤيا تعني أنه يجب عليها ألا تيأس من أن  
تكون ذات يوم حيث كنت أنا ) فلم تلبث أن أحابتني في الحال وبلا أدني تردد ( كلا إنني لم  
أخبر بأنني سأكون حيث يكون هو ولكنني أخبرت بأنه حيثما تكونين أنت سيكون هو أيضاً ) \*  
أعترف لك يا رب علي قدر وعي ذاكرتي - وطالما تحدثت عن هذا - بأن إجابتك لأمي كانت  
في الوقت الذي كانت فيه مستيقظة ، حتى إنها لم ترتبك بتعليل تفسيري غير الصحيح ،  
وأبصرت سريعاً ما يجب رؤيته وما لم أظن إليه قبل أن أتكلم معها حتى إنني تأثرت في ذلك  
الوقت بكلامها أكثر من الرؤيا نفسها ، تلك الرؤيا التي أفرحت أمي القديسة ، ولم يلبث  
فرحها أن صار كاملاً لأجل تعزية ألمها الذي ظل وقتاً طويلاً لأنني ظللت بعد ذلك تسع سنوات  
كاملة متمرغاً في حماة الهاوية العميقة ورغم أنني كثيراً ما حاولت أن أنهض ولكنني في  
كل مرة كنت ازداد هبوطاً إلي أغوار الأحزان وظلمة النفاق وكانت تلك الأرملة الوديعه التقية  
الوقورة التي أحبتها حزينة في كل حين من أحلي ولكنها لم تلبث أن صارت فرحة برجاء  
خلاصي مستقبلاً \* وإن كان هذا لم يقلل من دموعها إذ لم تنقطع عن النواح إليك من أحلي  
فدخلت صلواتها إلي حضرتك ومع ذلك فقد سمحت لي بأن أكون محاطاً وغارقاً في بحار  
الظلمة \*  
-21-

لم تكن وحدها إجابتك لأمي ، فقد أحبتها إجابة أخرى لا أتذكرها جيداً ، لأنني كنت أمر مرأ  
سريعاً بتلك الأشياء التي دفعتني علي أم أعترف لك بها ، وكثيراً من الأمور الأخرى غيرها  
\* \* \* لقد أحبتها في ذلك الوقت بواسطة أحد خدامك ، وهو أسقف أمين تربي في كنيستك ،  
وقد درس جيداً في كتبك \* لقد توصلت أمي إلي مقابلة ذلك الأسقف وطلبت إليه أن يتنازل  
ويحدثني ويفند ضلالاتي وبنهاني عن شربي ويعلمني أشياء نافعة لحياتي لأن هذه كانت  
عادته عندما يجد في بعض الناس رغبة في الإصغاء إلي حديثه \* ولكونه كان حكيماً فقد  
رفض - كما لاحظت بعد ذلك - وأجابها قائلاً ( بأنه مازال غير قابل للتعليم ) ذلك لأنني كنت  
أبالغ في مدح تلك البدعة التي كنت أعتقد بها حتى لقد أجبرت أناساً كثيرين غير حادقين  
علي أن يعتقدوا هم أيضاً بها عن طريق مناقشتني معهم فيها \*  
لقد أخبرتني أمي بأنه قال لها ( دعيه وحده ، وصلي إلي الله لأجله وسوف يعرف من نفسه  
حقيقة تلك الضلالة وسوف يعرف بالقراءة ما فيها من إلحاد عظيم ) \* لقد قال لها في نفس  
الوقت كيف أنه هو نفسه عندما كان صغيراً قد أسلمته أمه المخدوعة إلي المانويين ، وأنه  
لم يقرأ كتبهم فحسب بل قرأها كلها تقريباً \* ولكن لم يلبث ودون أن يناقش أحداً من الناس

فيها أو يسمع منهم دليلاً أو برهاناً يفندها لم يلبث أن شعر أن واجبه يحتم عليه أن يتعد عن تلك الشيعة وقد أتعد فعلاً عنها \*\*\* ولكن أمي لم تقتنع بهذا بل زادت في إلحاحها عليه بتوسلات ودموع كثيرة عله يراني ويتحدث معي ، حتى إذا أزعجتة لاجتتها أحاب قائلاً لها :  
(انصرفي إلي سبيك • الله يباركك • إنه غير ممكن أن يهلك ابن هذه الدموع )  
أية إجابة رائعة حصلت عليها أمي - كما ذكرت مراراً في حديثها معي - لقد كانت تعتقد أنها  
قد التقطها من السماء •

## الكتاب الرابع

=====

- حياة أوغسطينوس من التاسعة عشرة حتى الثامنة والعشرين
- إغواء الناس لاعتناق مذهب المانويين
- انقياده انقياداً جزئياً للزهو وحب الأثم
- استشارته للعرافين
- فقده صديقاً قديماً ورتائه له 0
- تأملات في الأحران والصدافة الحققة وغير الحققة وسعيه وراء الشهرة .
- أقوال عن ( الحسن والمناسب ) وهو كتاب ألفه القديس
- قبوله بعض التصورات الخاطئة عن الله 0

### -1-

#### إغواء الناس لاعتناق مذهب المانويين

لقد قضيت السنوات التسع التالية من عمري - ما بين التاسعة عشرة والثامنة والعشرين - ضالاً ومضلاً ، خادعاً ومخدوعاً في شهوات مختلفة كنا ندعوها علانية باسم ( العلوم الحرة ) ، وسراً ندعوها باسم ديني مزيف ٠٠٠ لقد كنت في ذلك الوقت متكبراً ومنساقاً وراء الخرافات ، مفتخراً ومزهواً بنفسي في كل مكان ساعياً وراء المديح العام عن طريق الفوز بجوائز الشعر والمناظرات لأحصل على أكاليل الزهر الخضراء ، وحماقات المناظر الباطلة وفجور الشهوات . ولما كنت أريد أن أتطهر من هذه النجاسات فقد كنت أحمل الطعام لأولئك الذين كنا ندعوهم ( مختارين ) و ( قديسين ) حتى إذا تناولوا تلك الأطعمة تحولت إلي ملائكة وألهة قد نتطهر بها ، وهكذا اقتفبت أثر هذه البدعة ومارستها مع أصدقائي المخدوعين بواسطتي والمخدوعين معي بها .

ليتك كنت يا رب قد سمحت لأولئك المتكبرين أن يهزأوا بي ولكنهم لأجل فاندتهم لم يهزأوا !! ليتك قد تركتهم يهزأون بي أنا المضروب والمذلول منك يا إلهي ، فإني مازلت اعترف أمامك بفضيحتي ، وأتوسل إليك ، أن تحتملني وأن تهيني نعمة لأعبر عما بخاطري من ضلالات ذلك الزمن الماضي وأقدم ذبيحة الشكر لك لأن نفسي بدونك لم تكن تحمل سوي دليل سقوطها إنني الآن أمامك وبالجهد لست إلا طفلاً يمتص اللبن الذي أعطيته إياه ويقفات بك أيها الطعام الذي لا يفني . إن أي رجل منا مهما كان الجنس البشري الذي ينتسب إليه ليس إلا رجلاً ضعيفاً يضحك منه الأقياء والمقتدرون وأما نحن المساكين فدعنا نعرف بإثمننا لك .

### -2-

#### انقياده انقياداً جزئياً للزهو وحب الأثم

في تلك السنين كنت أعلم علم البيان ، ولما كنت طماعاً فقد أقيمت للثرثرة سوقاً عظيمة ، ومع ذلك فإني كما تعلم يا رب فضلت الطلبة الأمناء - حسب ظني - وهؤلاء علمتهم الخداع بدون قصد لا لكي يستعملوه في إهلاك البرئ وإنما لكي يستعملوه أحياناً في إنقاذ المذنب . وأنت يا الله قد لاحظت من بعيد كيف كنت أتعر في تلك المسالك الزلقة فأرسلت إلي أشعة إيمانك - وسط دخان كثيف- لتهديني وخلصتني من محبة الزهو الكاذب .

لقد كنت أعاشر في تلك السنين امرأة بلا زواج ، وكانت تلك المرأة لا تميز في عشقها الجامح بين إنسان وإنسان ومع ذلك فلم يبق وقياً لها سواي . وبواسطة هذه المرأة اختبرت الخلاف القائم بين الميثاق اللازم لإنتاج النسل وبين محبة الشهوة حيث يولد الأطفال ضد إرادة والديهم مع أنهم يجبرون علي محبتهم عندما يولدون .

### -3-

#### استشارته العرافين

إنني أتذكر كيف أنه في ذلك الوقت وعندما أردت أن أتقدم لكتابة قائمة إحدى الجوائز التقليدية ، أتذكر أنه جاءني أحد العرافين ساناً إياي ماذا أعطيه لكي يرشدني إلي ما أعمله لكي أربح تلك الجائزة . ولما كنت أبغض ذلك العراف وأبغض كل أسرار القبيحة فقد أجبته بأنه لو أمكن أن يتحول لكليل الزهر الذي يمنح جائزة إلي لكليل من الذهب الخالص فإني لا أقبل أن أربحه عن طريق القتل حتى ولو كان ما يقتله ليس إلا ذبابة واحدة، ذلك لأن عادته كانت أن يستعين بقتل بعض المخلوقات الحية ليقدّمها ذبائح للشياطين ليدعوها لمساعدتي .

لقد رفضت هذا الشر العظيم ، ولم يكن هذا الرفض خالصاً من أجل محبتك يا إله قلبي لأنني لم أكن بعد قد عرفت كيف أحبك أنا الذي لم أكن أعرف كيف أتخيل إمكان وجود أي شئ خلف مادة منيرة !! أفلا يمكن أن ترتكب الفسق مثل هذه النفس المتتهدة علي تلك الخرافات ، أو تعتقد في أمور باطلة وتتغذى بالهواء ؟؟؟ إنني مازلت إلي الآن أرفض أن أقدم عني ذبائح إلي الشياطين ومع ذلك فإني قدمت نفسي ذبيحة لهم باعتناقي تلك الخرافة لأنه ليس هناك ما هو أشر ممن يقفات بالهواء لكي يشبع الشياطين بزبغاته ويصبح تسليتهم وهزهم .

### -4-

في ذلك الوقت وبلا أدنى تردد استشرت أولئك المحتالين الذين أطلق عليهم اسم علماء الرياضيات ، لأنهم حسب عقيدتهم - كما كان يظهر لنا - لا يقدمون ذبائح ولا يصلون إلي أي روح . إن هذه العقيدة كانت مشجوبة من كل المسيحيين ، لأنها تتنافى مع كل صلاح حقيقي . إنني اعترف بأنني قد استشرت هؤلاء المحتالين لأنه من الخير لي أن اعترف بذلك قانلاً أرحمني واشف نفسي لأنني أخطأت إليك ، من أن استهين برحمتك متذكراً كلمات الرب ( ها أنت قد برنت فلا تخطئ أيضاً لنلا يكون لك أشر ) .

لقد جري مذهب أولئك المحتالين علي الاجتهاد في هدم كل رأي سليم إذ أنهم يقولون ( إن سبب الإثم مقدر من السماء ، وهو من عمل الزهرة {وهي آلهة الحب} وزحل {وهو إله الزمان} والمريخ {وهو إله الحرب } ) ، فأخذوا بهذا الرأي يكون الإنسان الفاسد المتعرج ، والمخلوق من دم ولحم ، بلا لوم ، لأن اللوم يقع علي خالق السماء والنجوم . ومن هو الخالق إلا إلهنا ، الذي هو العذوبة الحققة ومنبع الصلاح ، الذي يعطي كل إنسان بحسب أعماله ، ولا يرفض القلب المنكسر والمنسحق ؟؟

### -5-

في تلك الأيام أيضاً قابلت رجلاً حكيماً وماهراً جداً في الطب ، حتى ذاعت شهرته بين الناس . ولم يكن سبب هذه الشهرة هو طبه ،

بل كان سببها أنه كان حاكماً رومانياً . لقد وضع هذا الرجل بيده إكليل الكفاح فوق رأسي السقيمة بذلك المرض ، الذي لا يستطيع شفاؤه سواك وحدك ، يا من تقاوم المتكبرين ، أما المتواضعون فتعطيهم نعمة .

فهل استخدمت أنت هذا الرجل العجوز لإهلاكي ، أم أنك امتعت فقط عن شفاء نفسي؟؟

لقد لازمت هذا الرجل عندما عرفته ، وكنت أواظب علي سماع أحاديثه الطيبة ، وعباراته الواضحة القوية . لقد استنتج من حديثي معه ، إنني كنت مغرماً بكتب علماء الفلك ، فنصحني بلطف وكأب أن أنبذ هذه الكتب ، وأن لا أقيم وزناً لهذه الأباطيل ، وأن أعتني وأجتهد بما هو ضروري ولازم ، قانلاً لي إنه درس في صغره الطب ليتخذ منه مهنة يعيش منها ، طائلاً إنه بدرسه كتب "ابقرات" يمكنه أن يفهم سريعاً علماً كهذا . ومع ذلك فإنه لم يلبث أن نبذها وتركها لا لسبب سوي أنه وجدها ملفقة تلفيقاً ، وإنه كرجل لا يود أن يكسب عيشه باغواء الناس ، حتى لقد قال لي : ( إن لديك علم البيان ومن ورائه تستطيع أن تكسب عيشك فعليك بتعليم هذا العلم المباح ، وأعطني شهادة بأثني قد درسته - أنا الذي قد تعبت في إجادة تحصيله - كي أريح من ورائه عيشي ) ولما سألته كيف يمكن لعلم البيان أن يوصلني إلى حقائق الأمور ، أجابني علي قدر استطاعته قانلاً ( أن قوة الصدفة الكائنة في نظام الكون ، كفيلة لأن توصلك إلي الحقائق ، وذلك إنك عندما تقلب صفحات ديوان أحد الشعراء الذين نظموا الشعر ، وفكروا في أشياء تخالف ما تفكر فيه ، فإنك كثيراً ما تجد بيتاً من الشعر يطابق تمام المطابقة وبنوع عجيب لما يجول في فرك ، ويدور في ذهنك ، وهذا لا يمكن أن يكون مجرد صدفة تثير عجبك ! أما الإنسان الذي لا يدرك من روحه ما يحل محل الصدفة ، فكثيراً ما ترشده غريزته الطبيعية إلي الإجابة الواضحة ، ويكون هذا عن طريق الصدفة لا بمهارة السائل في حرفته أو عمله ) .

-6-

وهكذا يا رب أعطيتني عن طريق هذا الرجل ، ما أفحصه في ذاكرتي فيما بعد . ومع ذلك فإن هذا الرجل لم يستطع هو و نبرودس } أحد أصدقاء القديس أوغسطينوس وكان محبوباً لديه جداً ، كما كان صالحاً صلاحاً كبيراً وله مهابة ووقار وكان يحنقر جماعة العرافين } أن يستميلاني إلي أن أطرح جانباً نفوذ الفلكيين ، الذي كان سانداً ، ومع إنني حتى الآن لم أجد أي برهان حقيقي لما كنت أظن أن الشك لا يمكن أن يتطرق إليه . حقاً إن ما أنبأتني به هذان الرجلان المعتبران كان نتيجة الصدفة وليس من فن مراقبي النجوم

-7-

حزته لموت أحد أصدقائه

في تلك الأيام عندما بدأت في تعليم علي البيان في وطني اتخذت لي صديقاً ، وكان هذا الصديق دون جميع الأصدقاء عزيزاً جداً عندي ، وكان في مثل سني في بداءة مطلع الصبا . لقد نشأنا معاً أطفالاً ، كما كبرنا نحن الاثنان معاً وتزاملنا في الدرس و اللعب . ولكن صداقة اليوم لم تكن كصداقة الأمس غير مؤكدة ، لأن الصداقة لا يمكن أن تكون قوية ما لم تأتلف بصديقك وتلتصق به بتلك المحبة التي يسكبها الروح القدس المعطي لنا . ولقد نشأت تلك الصداقة مجرد صعبة رقيقة ، ثم زاد من حرارتها تلك الدراسات ، التي كانت من نوع واحد وكنا ندرسها معاً ولم يلبث أن أردت عن الإيمان الصحيح - لأنه إذ كان شاباً فإنه لم يدرس حقائق الإيمان جيداً وتاماً - إلي بدعة أولئك المحتالين بسبب إغراني له بها ، الأمر الذي تأسفت من أجله أمة .

لقد ضل هذا الشاب في الطريق الذي ضللت فيه ، وارتبطت نفسي به ارتباطاً قوياً ، ولكنك يا رب يا من لا تتخلى عن أبنائك الذين يبتعدون عنك ، أنت يا إله النعمة ونبع المراحم ، رددته إليك بوسانك المحيية ، أنت أخذته من هذه الحياة عندما أتم سنة كاملة معي في صداقة نادرة ، حتى كانت حللته عندي أحلي من كل حلوة نذفتها في حياتي .

-8-

من يقدر أن يحصي كل الأعمال التي يختبرها الإنسان في نفسه ويسبحك من أجلها ؟ ماذا فعلت معي يا إلهي في ذلك الوقت؟ حقاً ما أبعد آراءك عن الفحص وحكمتك عن الاستقصاء ، لقد تركت صديقي نانماً فوق فراش المرض بلا حراك ، بين الحياة والموت ، وقد جعلته الحمي في غيبوبة طويلة ، فلما ينسوا من شفائه عمدوه دون أن يدي . أما أنا فلم أهتم بمعموديته ، معتقداً أن نفسه ستحفظ سالمة بفضل ما تعلمه مني لا بما ناله وهو في غيبوبته ، ولكن الذي حدث كان علي عكس ذلك تماماً ، فإنه عندما تقوي وابتعدت عنه الحمي وأصبحت قادراً علي أن أتكلم معه بعد أن استطاع أن يتكلم ، لأنني لم أفارقه مطلقاً أثناء مرضه ، في ذلك الوقت أردت أن أمزح معه طائلاً أنه هو أيضاً يريد أن يمزح معي بتلك المعمودية التي حصل عليها عندما كان لا يعي شيئاً ، ولكنه إذ كان قد عرف أنه قد تمعد احتقرني كأثني عدوه ، وطلب مني بصراحة عجيبة وغير متوقعة ، بأنني إذا أردت أن أحافظ علي صداقته ، فيجب علي ألا أتكلم بهذه اللغة معه . ولما كنت في غاية الدهشة والعجب ، كلمت ما بنفسي حتى يشفي تماماً ويكون في صحة تامة تمكنني من أن أعاتبه كما أريد

ولكنك يا رب أبعدته عن هذباتي ، وأخذته لتحفظه معك لأجل راحتك ، إذ بعد أيام قليلة عندما كنت غائباً بعيداً عنه ، عاودته الحمي ثانية ومات .

-9-

لقد نزلت علي نفسي تلك المصيبة نزول الصاعقة ، فأنقبض لها قلبي انقباضاً شديداً ، فما كنت أبصر أمامي سوي ظلام الموت ، لقد صارت مدينتي لي المأ وصار بيت أبي لي غمماً وهمماً ، وأصبح كل شيء كنا قد اشتركنا فيه معاً عذاباً أليماً . لقد فتشت عنه في كل مكان ولكني لم أره ، ولم تستطع عيناي أن ترشداني إلي أنه قادم كما كان يحدث في غيابه عندما كان حياً . لقد أصبحت لي نفسي لغزاً معقداً ، وسألته (لماذا هي هكذا حزينة ولماذا تنن في) ؟ ولكنها لم تكن تعلي بماذا يجب ، وعندما كنت أقول لها (ترجي إلهك ) كانت لا تطيعني ، وكانت علي حق ، لأن ذلك الصديق العزيز جداً كان رجلاً مخلصاً ن وكان من ذلك الطيف الذي زادت نفسي في الاعتقاد به . . . إن الدموع وحدها هي التي استعذبتنا فكانت حلوة لي ، لأنها حلت محل صديقي في أثنى عواظي .

-10-

والآن يا رب ، وقد اجتزت هذه الأمور ، وقد سكن الزمن جراح قلبي المصدوع . أفيمكن أن أتعلم منك أيها الحق ؟ أيمكنني أن أقرب أذني فؤادي نحو فك ، لعلك تخبرني لماذا يعلو البكاء للحزين ؟ وهل أنت أيها الموجود في كل مكان ريميتني في تعاستي وحزني بعيداً عنك ؟ . . . أنت وحدك الدائم في نفسك ، أما نحن فنتقاذفنا مصائب كثيرة ، وإن لم نبك في أذنك فلن يكون لنا رجاء . إن الثمار الحلوة لا تُجمع إلا من شجرة الحياة المرة ، ومن الأتئين ومن الدموع ومن التهنيدات ومن الشكايات ! فإذا كان لنا رجاء في أنك تستجيب لنا ، فإن هذا يجعل الحياة حلوة في أنظارنا . وهذا لا يأتي إلا من الصلاة إليك ، التي توجد فينا الشوق للاقتراب منك ، ولكن أيوجد هذا الشوق عندما نفقد أحداً ؟ أكان هذا الشوق موجوداً في الحزن الذي كنت مغموراً فيه في ذلك الوقت ، الذي لم أكن أتوقع فيه عودة صديقي ثانية إلي الحياة ولم أبك من أجل عودته إليها ؟ ! إنني بكيت وحزنت لأنني كنت تيمساً وفقدت كل سبب للفرح ، فهل يكون البكاء حقاً أمراً محزناً ، وهل نبكي من أجل محبة الأشياء التي كنا نسر بها قبلاً ، وهل عندما نشمئز منها نسر في ذلك

## الوقت ؟ !

-11-

بماذا أجيب عن كل هذا ؟ لأن هذا وقت الاعتراف وليس وقت السؤال !! لقد كنت تعسا وكانت نفسي كذلك تعسة لأنها كانت مرتبطة بحب أشياء فانية ، فلما فقدتها شعرت بالبؤس الذي كانت فيه قبل أن تفقدها .  
هكذا كان الأمر معي لذلك بكيت مر البكاء ، ووجدت الراحة في الحزن فشقيت ن لقد اعتبرت هذه الحياة التعسة أغلي من صديقي، لذلك فبانه رغم أنني كنت أود أن أغيرها عن طيب خاطر ، فإني لم أود أن أتركها ، وكنت أفضل البقاء فيها علي أن أكون حيث هو .  
وفي الحقيقة إنني لا ادري هل كنت أود أن أترك الحياة لأجله كما قيل - إن كان ذلك صدقا - " بيلادوس " و " أورستس " اللذين كانا يودان بكل سرور أن يموتا لأجل بعضهما ومع بعضهما ، لأنهما كانا يعتقدان أن حياة أحدهما بدون الآخر أسوأ من الموت . ولكن شعوراً خفياً اشرق في قلبي متعارضاً مع هذا العمل حتى إنني بالرغم من كراهيتي للحياة فقد خشيت الموت وكرهته كعدو قاس جداً أبعدني عن صديقي ، الذي أحببته كثيراً وتصورت أنه سيقضى علي جميع الناس سريعاً ما دام قد قضى علي صديقي . . . هكذا كانت حالتي .

هوذا قلبي يا إلهي ، أنظر إليه وافحصني ، لأنني أتذكر ذلك جيداً يا رجائي ، يا من تطهرني عندما أتطلع إليك بكلتا عيني من دنس هذه العواطف ، أخرج من الشرك قدمي لأنني ضللت عندما وجدت أناساً كثيرين كانوا علي شفا الموت ونجوا ، ومات صديقي الذي كنت أحبه وكنت أتمني ألا يموت أبداً .  
إنني أتعجب من نفسي كيف تمكنت أن أعيش بعد موت صديقي الذي كنت له أشبه بظله ، لقد قال لي أحد أصدقائنا ( أنت نصف روحه ) ، لأنني كنت أشعر أن نفسينا كانتا ( روحاً واحداً في جسد ) ، لذلك فإن حياتي بعده كانت مروعة لي ، لأنني لم أكن أود أن أعيش مشظوراً ، كما أنني خفت أن أموت ، لنلا يموت كل الذي أحببته !!

-12-

أه من غباء الإنسان الذي لا يعرف كيف يحب أصدقاءه كما يجب ببقية الناس بعضهم البعض !! كم كنت غيباً في ذلك الوقت ، وكم كنت أكابد من أحزاني والامي !! لقد اضطربت وتهدت وبكيت، لقد كنت مضطرباً وحائراً دون أن أعثر علي شاطئ أرسو عليه ، وكانت نفسي منزعة ومنتفخة ودامية ، فلم تستطع أن تنال الراحة . . . إن الغابات الهادئة لم يكن فيها ما يطمئني، والموسيقى العذبة لم يكن فيها ما يشجيني، كذلك لم يكن في جمال البساتين ما يسرني ، ولم يكن في بهجة الحفلات ما يطربني . أما الكتب والأشعار فكنت لا أجد فيها عزاء ، والانغماس في إرضاء الشهوات لم يكن لي فيه متعة أو لذة .  
إن كل شيء - حتى منظر الضوء - كان يبدو أمامي مشابهاً لمنظر الموت ، وكل ما كنت أراه كان يظهر علي غير حقيقته ، أما نفسي فكانت تكره كل شيء ما عدا الدموع والأتين والتأوهات فهي وحدها التي كنت أجد فيها بعض الراحة والعزاء ، حتى إذا ما تخلت عنها شعرت بأني أنواع تحت ثقل جميع بلايا العالم وأرزائه، وإن هذه البلايا والأرزاء تغوص بي إلي أعماق الهاوية .

\* \* \*

إنني لو تطلعت يا رب إليك ، لو وجدت الفرح بقربك ، لقد أدركت هذا ، ولكن نفسي لم ترغب في أن تذهب إليك ، فلما فكرت فيك لم يكن لهذا التفكير صدي في نفسي ، لأنها لم تعرفك علي حقيقتك ، بل كنت عندها مجرد خيال عابر . . . لقد ضللت لعدم معرفتك ، ولهذا فشلت عندما حاولت أن أزيح عن عاتقي ثقل أحزاني ، وكان الثقل ينزلق متسللاً إلي أسفل مطبقاً علي قلبي ! فزيد ألمي وتعبتي.  
أواه من تلك الأحزان . . . لقد صارت رقعة سوداء أمامي ! لا أستطيع أن أجد لنفسي منها مهرياً . . . لأنني لا أستطيع أن أهرب من قلبي ونفسي . . . ومع ذلك فقد هربت إلي خارج وطني . . . إلي قرطجنة حيث لم تكن عيناى قد اعتادت أن تنظره ، فكان سعيهما إلي التفتيش عنه أقل من سعيهما للتفتيش عنه في وطني " نأجستا " .

-13-

إن الأزمنة لا يمكن أن ينقص منها زمان ، كما لا يمكن أن يطوي بلاطاً أي زمن من الأزمنة ، وليس هناك ما يفعل بأفكارنا أو يؤثر تأثيراً عجبياً في احساساتنا خير من الزمان . . . إن زمن الأحزان أخذ يمر يوماً فيوماً، وبمروره بدأ زمان جديد يحل محله، وبدأت ترتسم في عقلي تصورات أخرى وخواطر أخرى ، وهكذا أخذت أعود شيئاً فشيئاً إلي حياتي القديمة وأفراحي القديمة ، وانفتحت أحزاني فلم أسر وراء أحزان أخرى ، وإن كنت قد سرت وراء بواعث الأحزان .  
إن الحزن القديم قد وصل إلي أعماقي ، حتى سكبت نفسي في التراب محبة في ذلك الإنسان الذي كان لا بد أن يموت ، ومع ذلك فإني حزنت عليه كأنه لا يموت أبداً . لقد أبرأني من حزني القديم علي أصدقاء آخرين ، فأحببت معهم ما أحببت دون أن نحكي يا إلهي ، لأن نفوسنا كانت مدنسة بخرافة عظيمة و أكذوبة شائعة ، وهي أن ندع المذاهب وراء ظهورنا ، وأن نكتفي بعمل الخير . . . فكنا ندنس أنفسنا بالفسق الذي كانت أذاننا تشتاق إلي التلذذ بالتحدث عنه ، وكنا نداعب بعضنا بعضاً ، ونقرأ معاً كتباً كلها ملق ، كما كنا نمزح مع بعضنا ، ونغار علي بعضنا ، فتارة نفرق وطوراً نجتمع ، فإذا افترق أحد عنا اشتاقت إليه نفوسنا ، وإذا عاد إلينا رحبنا بعودته لنا .

-14-

هذا ما منا نحبه نحن الأصدقاء ، ولهذا كانت ضمانتنا مستريحة ، ما دما نحب من يحبنا ، ولا نحب من يبغضنا ، غير مهتمين بهذا الشيء أو ذلك ، بل كنا مهتمين بما يربطنا من روابط الألفة والمحبة ، فإذا مات أحدنا انغمست قلوبنا في الأحزان ، وغرقنا في النواح والكدر ، وتحول كل ما كان عذباً إلي مرار ، فيعيش الحي ميتاً بعد فقد الذي كان حياً .  
ولكن طوبى لمن يحبك يا إلهي ، ويجعلك وحدك صديقه فيعادي من يعاديك ، ويحب من يحبك ، فمثل هذا الإنسان لا يموت لديه أبداً عزيز ، لأن من يحبهم إنما يحبهم فيك ، أنت الذي لا تموت . . . أنت وحدك إلهنا !!! أنت وحدك الإله الذي يملأ السماء والأرض ، ومادامت تملأهما فأنت هو خالقهما ، وأنت وحدك الذي لا يخسرك إلا من يبتعد عنك ، ولكن إلي أين يذهب وإلي أين يهرب ؟ هل يمكن أن يُسر بالبعد عنك ؟ أو يحزن بالقرب منك ؟!! أنت وحدك هو الحق وناموسك هو حق .

-15-

## كتابات عن الحسن والمناسب

أيها الرب إله الجنود تطلع إلينا ، وأرنا وجهك فحياً . إن نفوسنا ستظل قلقة ما دامت منحرفة عنك ، كما ستظل مثقلة بالأحزان ما بقي تعلقها بحب الكائنات الجميلة ومع ذلك فإن هذه الكائنات هي منك لأنها لا تقدر أن تكون ما لم تكن آتية منك . إن هذه الكائنات الجميلة تظهر وتتكاثر ولكنها لا تلبث أن تزول ، إنها تنمو ويستمر نموها حتى يبلغ حد الكمال ، ولكنها لا تلبث أن تفني ، إنها جميعاً لا تبلغ مرتبة الشيخوخة ، ولكنها جميعاً لا بد أن تموت . إن كل كائن منها يرغب في أن يكون جميلاً ، بل يرغب في أن يصل إلي

أعلى مراتب الجمال بسرعة حسب الناموس الذي أعطيته ، ومع ذلك فإن جميع أجزائه لا تظهر دفعة واحدة ، ولا بد أن يزول جزء قبل أن يظهر جزء آخر ، ومن تعاقب أجزاء بعض الكائنات وزوال غيرها يتم تكوين عالمنا هذا ، مثل ذلك مثل الكلام الذي ننطق به فإنه لا يظهر إلا عندما ننطق به علانية ، ومع ذلك فإنه لا يتم إلا عندما ننطق بأخر كلمة لنلا يكون هناك كلام بعدها .  
دع نفسي تسبحك من أجل هذه الكائنات يا خالق الكل، ولكن لا تدعها متعلقة بحبها ، لأنها إذا تعلقت بحبها فإن هذا الحب سيفسدها ولا يجعلها تستريح إلا من دوام وجودها ، وهي لن تدوم لأنها لا بد أن تمضي إلي حيث يجب أن تكون في المكان الذي حددته لانطلاقها لأنها بكلمتك أبدت وبكلمتك تسمع الحكم عليها بأن تمضي إلي نهايتها المحتومة ( من هنا إلي هنا ) .

-16-

آه يا نفسي كوني عاقلة ولا تدعي غوغاء الحماسة تغلق أذني قلبك ، فإن الكلمة يناديك أن ترجعي إليه حيث ركن الراحة الركين . . . إن جميع الكائنات تزول وتخلفها كائنات أخرى تحل محلها ليكتمل نظام هذا الكون ، ولكن إلي أين تتطلقين يا نفسي ؟ إن كلمة الله يقول لك : ( هناك مثبت مسكنك . ثقي يا نفسي بكل ما هناك ، إنك الآن تتونين بالأباطيل فتقي بالحق ، وثقي بأنك لن تفقدي شيئاً هناك ، لأن كل ما هناك هو من الحق . هناك سوف تزدهر شيخوختك ، وتشفي كل أمراضك ، وتتجدد كل أطرافك الميتة فتحيين وتبقيين إلي الأبد أمام الله الذي يدوم ويثبت إلي الأبد.)

-17-

لماذا تضلين يا نفسي وتتبعين أهواء الجسد ؟ توبي وأتبعي ربك فإنه يعلم كل ما تعملين، وإن ما تعملينه ليس إلا جزءاً مما يعلمه هو ومع ذلك فإنك تبتهجين بما تعملين .  
أن الله يعاقب الإنسان بعل عندما يحرمه من بعض ما يريده ، لأن كل ما هو موجود في العالم مصيره إلي الزوال ولن يتبقى إلا الكل ، الذي به يكون فرح الإنسان فرحاً حقيقياً . لأن الإنسان إذا استمع إلي كلمة من الكلمات فإنه لا يدرك المقصود بها ، إذا كان هناك نقص في مقاطع هجانها ، فهو لذلك لا يود سماعها إلا وقد اكتملت مقاطعها ، وهكذا شأن الإنسان بالنسبة لما في العالم من كائنات ، فإنه لا يسر إلا بوجودها معاً ، وسروره بوجودها معاً يكون أكثر من سروره بواحد منها ، أو سروره إذا نقص شيء منها . . . إن الله هو خالق جميع الكائنات وهو أفضل من هذه الكائنات، إنها تزول لتحل محلها كائنات أخرى ، أما هو فإنه لا يزول ولا يوجد من يستطيع أن يحل محله .

-18-

إذا كان هناك بين الكائنات ما يسرك ، فسيح الله من أجله وأرجع محبتك له لأنه هو الذب خلقه ، وإلا انقلب سرورك حزناً إذا فقدته . إذا كانت هنالك روح تسرك فأحبها باعتبارها جزءاً من روح الله ، لأن أرواح الكائنات متقلبة ولا ثبات لها إلا في روح الله ، وبدونه يكون مصيرها إلي الفناء . فلتحب ما تحب في الله ولتحمل إليه معك ما تقدر أن تحمله من الأرواح ولتقل لها فلتحبي الله ، فلتحبي الله ن إنه هو خالق كل شيء ، إنه ليس بعيداً عنا ، إنه لم يمت بعد أن خلق ما خلق ولكنه لا يزال باقياً ، وكل شيء منه وفيه يظل باقياً أيضاً . انظري فإن الله موجود في كل مكان يحب فيه الحق ، إنه داخل القلب ومع ذلك فهل يزوغ القلب عنه ؟ أرجعوا إلي قلوبكم أيها الخاطئة وتمسكوا بثبات في الله الذي خلقكم. فبقوا معه فتثبتوا ، اسكنوا معه فيكونوا في سلام . إلي أي سبل وعرة تمضون ؟ وإلى أين تذهبون ؟ إن الحسن الذي تحبونه هو من الله وهو الحسن والسرور وإذا ابتعدتم عنه وأحببتم غيره ، فإن الحسن الذي تحبونه يكون ممزوجاً بالمرارة ، لأنه ليس من العدل أن نحب شيئاً ونرفض الله بسبب محبتنا لهذا الشيء . إلي متى تودون أن تسيروا في تلك المفاوز المتعبة التي مازلتكم تسيرون فيها ، إن الراحة لا توجد في أي مكان تبحثون عنه في تلك المفاوز . ففتشوا وابحثوا عما تريدون ، ولكن أعلموا أنه لا توجد راحة حيث تفتشون وتبحثون ، لأنه لا توجد حياة سعيدة في أرض الموت، إن الحياة السعيدة لا توجد هناك ، إذ كيف يمكن أن توجد الحياة السعيدة حيث لا يمكن أن توجد الحياة ذاتها ؟ !

-19-

إن الله الكلمة - حياتنا الحقيقية - نزل إلي الأرض وأنزعج ملاك الموت وزلزل سلطانه بقوة حياته ، لقد نادي بصوت عال كالرعد ، لقد نادانا بأن نرجع من أرض الموت ، إلي ذلك المكان الخفي الذي أتى منه متجسداً في الحشاء البتولي ، خاطباً إليه الخليفة البشرية - التي هي جسدنا المانت - حتى لا نموت إلي الأبد . إنه كالعريس الخارج من خدره وكجبار راکض في طريقه غير متردد بل اندفع منادياً بصوت عال ، بكلام وأعمال ، بموت وحياة ، بنزول وصعود ، أمراً إباناً بأن تعود إليه ثم غاب عن أعيننا لعلنا نرجع إلي قلوبنا ، وهناك نجده وإن كان قد مضى . لأنه لم يرد أن يمكث معنا علي الأرض طويلاً ، ومع ذلك فإنه لم يتركنا ، لأنه ذهب إلي ذلك المكان الذي لم يفارقه مطلقاً مع كونه كان علي الأرض ، لأن العالم به كونه وهو كان في العالم ، وقد أتى إلي هذا العالم ليخلص الخاطئة ، وله تعترف نفسي وهو يبرنها، لأنها أخطأت إليه0

آه يا بني البشر ، حتى متى تثقل قلوبكم ؟ وحتى بعد نزول الحياة إليكم لا تنهضون وتحبون ؟ إلي أين تصعدون عندما تتشامخون وترفعون أنوفكم نحو السماء ؟ تواضعوا لعلكم ترتفعون وتصعدون إلي الله ، لأنكم لم تسقطوا إلا لأنكم تشامختم . فليصغ المتشامخون إلي هذا ، لعلهم يبكون في وادي الدموع فيرتفعون إلي الله ، لأنني إذ أتكلم معهم فإني أتكلم بروح الله متقدماً بنار المحبة .

-20-

في ذلك الوقت لم أكن قد أدركت هذه الأشياء ، فأحببت الكائنات الجميلة الأرضية ، فهبطت إلي قرار الأعماق قانلاً لأصدقائي : لا نحب شيئاً سوي الجميل ، فمن هو الجميل وما هو الجمال ؟ وما هي الأشياء التي تغويننا وتستميلنا إلي الكائنات التي نحبها ؟ لأنه إن لم يكن في الكائنات التي نحبها حسن وجمال ، فإنها لا تقدر أن أبدأ أن تجذبنا إليها0  
لقد فطنت ولاحظت أنه يوجد جمال في أجساد الكائنات ، لأنها مكونة من طبقة من الكل ، ولأنها تكون طبقة أخرى من الأشياء المتفككة والمتشابهة والمتبادلة معها مثلما يتطابق أحد أعضاء الجسد مع الجسد كله ، أو مثلما يتطابق حذاء مع قدم أو ما شابه ذلك . . . لقد نبت هذا التأمل في عقلي ، نابغاً من أعماق قلبي ، وأتذكر إنني كتبت كتابين أو ثلاثة عن ( الحسن و المناسب ) ، وأنت تعلم يا رب أن هذه الكتابات قد فقدت مني لأنها لا توجد عندي ولا أعلم كيف فقدت .

-21-

ولكن ما دفعني إليها الرب الهى أن أهدي هذه الكتب لـ "هيربوس" وهو أحد خطباء روما الذي أحببته دون أن أقابله بسبب ما اشتهر به من علم ؟ لقد سمعت بعض كلماته فأعجبتني . لقد أبهجن كثيراً ما سمعته عنه كما أبهج آخرين سواي فمجده كثيراً ، وأدهشوا لأنه وهو سوري الجنس قد تملك أئنة البلاغة اليونانية ، ثم أصبح فيما بعد خطيباً لاتينياً لا يشق له غبار ، كما أصبح أكبر عالم في العلوم والفلسفة ، حتى مدحه الجميع ، مع أن أكثر من مدحوه وأحبوه لم يشاهدوه .  
ولكن أيمكن أن تدخل المحبة في قلب السامع من فم المادح ؟ إن الأمر ليس كذلك إذ أن المحبة تدخل بواسطة أحد المحبين الذي يضرم الآخرين بمحبته ، ولذلك يُحب الممدوح بتمجيد المادح المخلص عندما يمدح من أحبه .

-22-

في ذلك الوقت أحببت أولئك الناس الممدوحين من البشر ، وليس الممدوحين منك يا إلهي ، يا من لا يندفع فيك إنسان ، ومع ذلك لم أحب أولئك الناس بسبب ما تميزوا به من الصفات العامة التي أحبهم الناس من أجلها في كل جهة وكل جانب ، مثل ما يحبون الحوذي المشهور أو مصارع الوحوش في الملعب إذ أن الأمر عكس ذلك إلي حد بعيد ، فإني وإن اشتقت أن أمدح فإني لم أرغب في مديح مثل ذلك المديح الذي يكال للممثلين الذين وإن كنت قد أحببتهم ومدحتهم ، فإني كنت أود أن أكون مغموراً من أن أشتهر كما اشتهروا ، وكنت أود أن أكون منبوذاً من أن أكون محبوباً مثل حبهم .

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الأسباب التي تحرك أنواع الحب المختلفة في النفس الواحدة ، وإذا كنا جميعاً بشراً متساوين ، وإذا كنت لا أبيض أحداً ، فلماذا أحب صفة في شخص آخر لا أود أن يكون لي مثلها ؟؟ إن هذا الأمر لا يُحتمل !! لأنه إذا كان كل جواد يود أن يكون مثل ذلك الجواد الأصيل المحبوب من الجميع فهل أكون أنا وحدي الإنسان الذي يحب في إنسان صفات يكره أن تكون له . حقاً إن الطبيعة البشرية لغز يعسر حله ؟ ولا يستطيع أحد أن يسير أغوارها سواك ن يا من تحصي شعورنا فلا تسقط واحدة منها علي الأرض إلا بإذنك ، ومع ذلك فإنه قد يسهل علينا أن نحصي شعور رؤوسنا ، دون أن نستطيع إحصاء احساساتنا وضربات قلوبنا .

-23-

ولكن ذلك الخطيب الذي أحببته ، كان من النوع الذي كنت أنا نفسي مشتاقاً لأن أكون مثله ، حتى لقد ضللت في إعجابي العظيم به ، وتقادفتي الرياح من كل جانب ، ولكنك أنت يا رب كنت في الخفاء جداً تدبر أموري .

من أين أعرف ، وكيف أعترف لك بأنني أحببت ذلك الخطيب بسبب حب مادحيه له ، أكثر من حبي له ، بسبب الصفات التي مدحوه من أجلها ، فلما ذمه مادحوه أنفسهم وأخبروني عن سبب ذمه وأزدراجه ، فترت محبتي له وصرت غير متأثر به ، ومع أن السبب التي ذموه من أجلها لم تكن جديدة عليه ، كما أنه لم يصحح شخصاً آخر ، ولكن الذي تغير هو شعور المتحدثين عنه . تطلع يا رب وانظر إلي نفسي الضعيفة ، لأنها حتى الآن لم تتدغم بعبالة الحق ، بل هي مثل تلك الثورة التي تقوم في صدر الحقود فيندفع لسانه في هذا الاتجاه أو ذاك ، نافثاً سموم حقدته تارة بسرعة وطوراً ببطء ، قالباً النور ظلاماً حاجباً الحق عن العيان . لقد كنت مهتماً اهتماماً كبيراً بأن يعرف ذلك الرجل مقالتي ومقدار ما عانيت في تسطيرها ، وكنت مضطرباً جداً ، لمعرفة ما يستحسنه خاشياً أن يستقبح عملي فيجرح قلبي الخالي من حكمتك . ومع ذلك فإني تمنعت وعانيت كتابي الذي كتبتة إليه ( الحسن والمناسب ) الذي لم يعن إنسان بالالتفات إليه حينذاك .

-24-

قوله تصورات خاطئة عن الله

ومع هذا فإني لم أتحوّل بسبب ذلك الأمر الخطر إلي حكمتك ، أنت أيها القادر علي كل شيء ، وصانع العجائب وحده . لقد طافت بعقلي صور جسدية ، وأدرت السر فيما هو (حسن) و (مناسب) اللذين لا يكون لهما جمال إلا في مطابقة الشيء للشيء الآخر . ولقد دعمت هذا الرأي بأمثلة جسدية ، وكنت منقاداً في هذا بعقلي ، ولكن الشعور الكاذب عن الأشياء الروحية الذي كان مسيطراً علي لم يدعني أري الحق ، ولكن قوة الحق ذاتها قد بهرت عيني وأبعدت من نفسي التفكير في الأجسام غير المادية إلي المناظر والألوان والأشياء كثيرة الأهمية . ولكوني كنت عاجزاً عن إدراك هذا بعقلي ، ظننت إنني لا أقدر أن أدرك كنه عقلي . لقد أحببت في الفضيلة السلام ، وكرهت في الشر الخصام ، لأنني لاحظت في الأول اتفاقاً ، ووجدت في الثاني انشقاقاً . وفي ذلك الاتفاق أدركت النفس العاقلة ، وطيبة الحق ، وطبيعة الخير الرئيسي الذي يجب أن أتوصل عليه ، كما أدركت وجود الطبيعة الأولى للشر ، التي لا يمكن أن تكون مادة ، بل هي أيضاً حياة حقيقية ، وقد أدركت أن هذه الحياة لم تؤخذ منك يا إلهي ، يا من أخذت منك كل الأشياء لقد دعوت طبيعة الخير (موند) ومعناها جزء لا يتجزأ} واعتبرتها روحاً بلا جسد ، ودعوت طبيعة الشر ( دوواد ) وهو الذي يرتكب أعمال العف والقباحة بغضب { غير عالم بحقيقة ما كنت أتكلم عنه ، لأنني لم أكن أعلم أو أعرف أن الشر هو مادة ، ولا أن نفوسنا هي في ذلك الحسن الرئيسي الثابت .

-25-

إن أعمال العنف لا تظهر إلا عندما تفسد النفس وتضطرب ، وحينئذ تنشب معركة شديدة تهيج النفس يعتو وعناد ، كذلك تنثور الشهوات عندما يختل توازن هوي النفس ، فتجد المذات الجسدية ما يغذيها ويقويها . إن الضلالات والآراء الفاسدة تفسد النفس العاقلة ، كما أفسدت نفسي في ذلك الوقت ، إلي أن أدركت إنني في حاجة لأن أضيئها بنور آخر ، لعلها تكون مشاركة للحق ، وأنت أيها الرب أضأت سراجي وأنرت ظلمتي ، لأن من امتلاكك نحن جميعاً أخذنا ، لأنك أنت هو النور الحقيقي الذي يضيء لكل إنسان أتياً إلي العالم ، ولا يوجد فيك تغيير أو ظل دوران .

-26-

لقد سعيت إليك مدفوعاً بك لعلني أعرف طريق الموت فاتجنبه . إنك يا رب تقاوم المتكبر ، فهل كان هناك من هو أكثر تكبراً مني أنا الذي أردت - بنزق مكروه - أن أجعل نفسي علي طبيعتك ومثالك . لقد كنت أرغب بشدة في أن أكون حكيماً ، واشتقت لأن أصير في حالة أفضل من حالة الشر التي كنت فيها ، لذلك كنت مضطراً لأن أغير طبيعتي فاخترت أن أتصورك معرضاً للتغيير ، من أن أتصور نفسي علي غير طبيعتك . أما أنت فقد قاومتني وقاومت فسادة نفسي الباطلة ، لقد تصورتك نفسي في صور وأشكال مادية ، ولم أرجع إليك ، بل صرت مثل ربح عابرة ، وسبح تفكيري في أشكال ليس لها ظل منك أو من الناس ، ولم تخلقها لفانديتي ، وإنما اخترعتها في صور وأشكال مادية . لقد اعتدت أن أسأل - بعبارة - أولئك المؤمنين الذين كانوا يقيمون في بلدتي والذين لم أكن أعرفهم ، لقد اعتدت أن أسألهم أسئلة كثيرة تافهة ، مثل ( لماذا تخطى النفس التي خلقها الله ؟ ) وذلك لأنني لم أجرو أن أسأل ( لماذا إذن أخطأ الله ؟ ) . وبهذه الأسئلة أكدت أن جوهرك غير المتغير قد أخطأ في إكراهنا علي عمل الشر . وهكذا كنت أفضل هذه الأسئلة علي أن أعترف بتقلب طبيعتي الضالة ، وإنك لأجل تاديبي قد أسلمتني إلي الضلال .

-27-

لقد كنت في سن السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين تقريباً عندما كتبت تلك المجلدات ، وقد ترددت في داخلي ورنيت في أذني قلبي تخيلات جسدية ، ولكنني لم ألبث أن رجعت عنها إلي نعمتك الباطنة يا أيها الحق العذب . لقد تأملت في ( الحسن والمناسب ) استطعت أن أقف وأستمع إليك وأبتهج بصوت العريس ، ولكنني لم أقدر أن أدخل العرس ، لأن نغمات ضلالاتي أسرع وألقت بي خارجاً ، فهبطت سريعاً إلي أعماق الهاوية بتأثير ثقل كبرياني ، إنك لم تدعني أسمع فرحاً وسروراً ، ولم تبتهج عظامي لأنها لم تتواضع إلي الآن .

-28-

في الثامنة والعشرين من أيامي القليلة ، وقع في يدي كتاب لأرسوطاليس يدعي ( الأحوال العشرة ) فتعلقت نفسي بذلك الكتاب ، كما لو كان شيئاً نفيساً سامياً . إن أستاذي في علم البيان في قرطجنة قد نبذ هو وعلماء آخرون - بعجرفة وكبرياء - هذا الكتاب .



أما أنا فقد قرأته وفهمته ، دون أن أستعين بأحد ، ولما تفاوضت مع آخرين فيه قالوا إنهم لم يشرحوه شرحاً لفظياً فقط ، ولكنهم شرحوه مستعنيين في شرحه برسومات علي الرمال ، ولهذا كان في مقدورهم أن يفهموني ما لم أستطع أن أفهمه بمفردتي .  
لقد كان هذا الكتاب ، كما بدا لي ، يتكلم بوضوح عن الأجسام مثل رجل ، وعن الصفات مثل شكل الرجل ، وعن أي نوع هو ، وعن القامة أي مقدار ارتفاعه ، وعن نسبه من هو أخيه ، وعن مسكنه أين يقم وغير ذلك من الأحوال أين ولد ، وهل هو واقف أم جالس ، وهل ينتعل شيئاً ، وهل يتسلح بشيء ، وهل هو يعمل عملاً ، وهل يتألم من شيء . كما كان هذا الكتاب يتكلم عن الأشياء الفائقة الحصر ، التي تدرج تحت تلك الحالة الرئيسية للمادة التي أعطي لها بعض النماذج .

-29-

ماذا استفدت من هذه الأشياء التي كنت أنظر إليها ، وكانت تعيقتني عنك ؟ إنني كلما كنت أتصور أن كل ما في الإنسان يندرج تحت هذه الأحوال العشرة كنت أحاول أن أختبر وأدرك وحدانيتك العجيبة الدائمة يا إلهي ، كما لو كنت أنت أيضاً قد أخضعت نفسك لعظمتك أو لجمالك ، كأحد الأجسام التي تدرج تحت تلك الأحوال العشرة ، غير عالم أنك أنت نفسك هو عظمتك وجمالك ، أما الجسد غير العظيم والجميل فهو جسد ، حتى إنه لسبب عدم عظمته وجماله يجب ألا يكون جسداً .  
إن ما تصورته عنك يا إلهي كان كذباً ولم يكن حقاً ، لأن ما تصورته لم يكن سوي خرافات تناسب تعاستي ، دون أن يكون حقاناً تلائم سعادتك ، لأنك قد أمرت - وما قد أمرت به قد نفذ في - إنه يجب علي الأرض أن تخرج لي شوكة وحسكاً ، وأنه يعرق جيبيني أكل خبزي !

-30-

ماذا استفدت من تلك الكتب التي قرأتها والتي كانت خاصة بالمهمن التي كانت تُعرف بالمهمن الشريفة؟ لقد قرأت هذه الكتب بنفسني ، وفهمتتها أنا الخبيث الأسير للأميال القبيحة . لقد قرأت هذه الكتب وفرحت بها لأن ما فيها كان محققاً ومؤكداً دون أن أعلم من أين أتى الكل ؟ لأن ظهري كان نحو النور أما وجهي فكان نحو الأشياء المنيرة ، لذلك كلن وجهي الذي كنت أنظر به الأشياء المنيرة غير مضيء !!

لقد قرأت من نفسي وبدن أستاذ ، كل كتب العلوم ، من بيان ومنطق وهندية وموسيقى وحساب ، وقد فهمت كل هذه بلا صعوبة كبيرة ، كما تعلم أنت أيها الرب إلهي ، لأن كل ما كان لدي من مواهب الذكاء وسرعة الفهم ، كان منك يا إلهي . ومع ذلك فإنني لم أقدم مواهبي قرياناً لك ، لذلك لم تجعلني أستخدمها لفانديتي ، بل بالأحرى لهلاكي ، عندما مضيت لأحصل علي نصيب وافر من هذه العلوم لأخبينه في ذاكرتي ، دون أن أحفظ طاقتي لك ، بل زغت عنك إلي كورة بعيدة لأتلف طاقتي في الفسق ، دون أن أستفيد من القوي الحسنة التي لم أستخدمها في الأعمال الحسنة .

إنني لم أشعر أن تلك العلوم صعبة ، حتى إنه لا يمكن للمجد في الدروس أن يتحصل عليها إلا بمشقة ، إلا بعد أن حاولت أن أفسرها لذلك الإنسان الذي عندما برع فيها تركني ولم يقبل في الاستمرار معي لسيري البطيء 0

-31-

ما الذي دعاني أن أتخيلك يا إلهي جسماً عظيماً مضيئاً ، وأن أتخيل نفسي جزءاً من ذلك الجسم ؟ إنه ضلالي الكبير ، لأنك لم تكن هكذا !! . . . . إنني لا أستحي أن أتترف لك يا إلهي بمراحمك نحوي ، وأن أدعوك أنا الذي منت أعوي مقابلك وأجذب عليك . ماذا استفدت من ذكائي الخارق في هذه العلوم ؟ و ماذا استفدت من كل تلك المجلدات المعقدة جداً التي فسرتها بدون مساعدة أحد؟ لقد أدركت الآن إنني كنت ضالاً عن تعاليم التقوى ، وانتهكت بخزي حرمة الأشياء المقدسة . إن صغارك الذين كانوا أقل ذكاء مني لم يضلوا بعيداً عنك ، بل كانوا يطيطون بأمان في صحن كنيستك بأجنحة المحبة ، ويتغذون بطعام الإيمان السليم .  
أيها الرب إلهنا دعنا نستظل تحت ظل جناحك ، نحفظنا وضمنا لأنك تضمنا جميعاً إليك إذا تواضعنا ، أيضاً تضمنا إلي أن تشيب شعورنا 0 إنه حينما تكون أنت ثابتاً فعدندك يكون هناك الثبات ، ولكن عندما يكون الثبات ثابتاً فعدندك يكون القلق والاضطراب .  
لا صلاح لنا إلا منك ، فإن أعرضنا عنك فإننا ارتد عن الصلاح .

دعنا الآن نعود إليك يا رب لنلا نضل . لأن فيك يدوم صلاحنا بلا انحلال . وإذا كنت أنت هو صلاحنا فلا نخشى الفاقة .  
دعنا نرجع إليك لنلا لا نجد مكاناً نرجع إليه . لقد سقطنا من صلاحك ، وفي خلال غربتنا علي الأرض حفظت لنا مسكننا الذي هو أبديتك